النهي عن الاستعانة والاستنصار في أمور المسلمين بأهل الذمة والكفار

للعلامة
الشيخ مصطفى بن محمد الوارداني
عفا الله عنه

تقديم وتعليق وتحقيق
الدكتور طه جابر فياض العلواني



بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله ، نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهد الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادى له ، وأشهد أن لا إله إلا الله ـ وحده ـ لاشريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله .

ألا وإن شر الأمور محدثاتها وكل محدثة فى دين الله بدعة وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة فى النار .

(يأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها ، وبث منهما رجالا كثيرا ونساء ، واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبا) (النساء : ١)

وبعد : فمنذ ثلاث سنوات ذهبت فى رحلة علمية إلى المدينة المنورة لزيارة مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والتشرف بالسلام على حضرته ، والاطلاع على مكتبات مدينته ، عليه الصلاة والسلام ، وفى مكتبة شيخ الإسلام عارف حكمت اطلعت على مجموع خطى نفيس يشتمل على ست وخمسين رسالة فى موضوعات مختلفة متنوعة ، رقمه العام (٩٥) ورقمه الخاص (٩٥) كذلك ، ورقم التصنيف (٨٠) .

وقد كان من بين رسائل هذا المجموع رسالة استوقفنى عنوانها ، وشدنى إليها مضمونها : تلك هى رسالة (النهى عن الاستعانة والاستنصار فى أمور المسلمين بأهل الذمة والكفار) وهى رسالة قصيرة وقعت فى الصفحات (٣٦ ـ ٤٣) من ذلك المجموع وحين قرأتها أدركت أهمية موضوعها وحاجة المسلمين الماسة إلى أن يذكروا به على الدوام ، فهو الموضوع القديم الجديد ـ الذى لا ينبغى أن يغفل عنه المسلمون لحظة .

وحين درست الرسالة وجدتها مجموعة من أقوال المفسرين والفقهاء ، وغيرهم من علماء الأمة فى هذا الموضوع الخطير ـ موضوع الاستعانة بالكفار فى أمور المسلمين ..

أما كاتب هذه الرسالة ، أو بالأحرى جامعها ـ فهو الشيخ (مصطفى بن محمد الوردانى) وقد حاولت العثور له على ترجمة فلم أستطع ، وأغلب

ظنى أنه من علماء الدولة العثمانية . الذين عاشوا فى القرن الثانى عشر الهجرى ، ولعله الشيخ (مصطفى بن محمد بن أحمد) الذى كان حيا فى ذلك القرن ، وعثر بخطه على نسخة من كتاب (التأويلات) لأبى منصور الماتريدى ، كتبها سنة (١١٦٥)هـ .

وقد يكون مؤلفها قد تعمد إخفاء شخصيته خوفا من بطش أعداء الله . وبعد قراءتى لها أكثر من مرة شعرت بعدم أهمية البحث عن اسم المؤلف ، فالرسالة نصوص حرفية جمعها صاحبها جمعا من أقوال المفسرين والعلماء فى تفسير نصوص الكتاب والسنة الواردة فى هذا الموضوع فإذا عُزيت تلك النصوص إلى مصادرها الأصلية لم يعد لمعرفة جامع تلك النصوص كبير أهمية سواء كان هو نفس ذلك الذى كتب صفحاتها أم غيره . وعلى كل حال نرجو الله تعالى أن يتغمد جامعها وكاتبها برحمته ، وأن لايحرم محققها ثواب جهده إنه سميع مجيب .

عملى فى التحقيق :

١ ـ عزوت الآيات الكريمة إلى مواضعها من الكتاب الكريم .

٢ ـ خرَّجت ما اشتملت عليه الرسالة من الأحاديث والآثار .

٣ ـ ترجمت للأعلام الذين ذكروا فى الرسالة .

٤ ـ عزوت أقوال المفسرين والفقهاء إلى مواضعها من كتبهم .

٥ ـ شرحت الكلمات التى تحتاج إلى شرحها شرحا لغويا موجزا .

٦ ـ صححت ما وجدته من أخطاء فى الرسالة على الكتب الأصلية التى جمعت منها الرسالة .

٧ ـ قدمت لها مقدمة ضافية رأيتها شديدة الأهمية فى أيامنا هذه ، وضرورية لفهم القارىء للموضوع .

وختاما فإننى أسأله ـ جلت قدرته ـ أن يتقبل منى هذا الجهد المتواضع ، وينفع المسلمين به ، ويحسن ختامنا فى الأمور كلها ويغفر لنا ولوالدينا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان .. إنه سميع مجيب .

د / طه جابر فياض العلوانى

مقدمة التحقيق

١ ــ ضرورة وجود حاجز نفسى بين الأمة وأعدائها :

حينما كانت البعثات الطلابية النصرانية تفد إلى ديار الإسلام وحواضره لتلقى العلم رغما عن رجال الكنيسة كان ذوو هؤلاء الطلاب ، ورجال الكنائس التى يتبعونها يبذلون كل جهودهم لوضع حواجز نفسية فى نفوس هؤلاء الطلاب وعقولهم تحول دون تأثرهم بالفكر الإسلامى وبحياة المسلمين ، ولقد بلغ من حرص الكنيسة على هذا أنها أصدرت قرارا كنسيا تقول فيه :

« إن هؤلاء الشبان الرقعاء[١] الذين يبدءون كلامهم بلغات بلادهم ، ثم يكملون كلامهم باللغة العربية لنعلم أنهم تعلموا فى مدارس المسلمين ، هؤلاء إن لم يكفوا عن ذلك فستصدر الكنيسة ضدهم قرارات حرمان ... »[٢]

وأما اليهود فتلمودهم وشروحه وتعاليم أحبارهم حافلة بكل ما من شأنه إيجاد الحواجز المادية والنفسية بينهم وبين سواهم ، وما « الغيتو » اليهودى فى كل بلد يحلون فيه ــ وفيه من غيرهم قاطنون ــ إلا مظهر واضح لتلك الحواجز التى يضعونها للمحافظة على كيانهم ، والحيلولة دون تسرب أى شىء يخالف تعاليم التلمود إلى نفوس أبنائهم وعقولهم ، ولولا هذه الحواجز ــ بقطع النظر عن خطئهم أو إصابتهم فيها ــ لذاب اليهود منذ قرون فى سواهم من الأمم ولانتهى

---

(١) الرقيع والمرقعان : الأحمق وهو الذى فى عقله مرمه . انظر الصحاح فى اللغة والعلوم معجم وسيط للجوهرى مادة رقع .

(٢) راجع مجلة المجتمع عدد (٣٤٠) ص (٢٧) سنة (١٣٩٧) هـ

وجودهم .

أما المسلمون فهم مدركون أنهم « الأمة الوسط الشهيدة على الناس » التى تمتاز عن غيرها بشخصيتها الإسلامية المستقلة ، الممتازة عن سواها فى الفكر والاعتقاد والسلوك والنظام وسائر شئون الحياة .

ومهمة الشهادة على الناس « تفرض على هذه الأمة مخالطة غيرها ، ومعايشة سواها ، وإقامة أنواع مختلفة من العلائق بينها وبين الآخرين ، فكان لابد من حاجز نفسى بينها وبين أعدائها على أن لايحول هذا الحاجز دون قيامها بواجب « الشهادة على الناس » فالتوازن بين تحقيق واجب إيجاد « الحاجز » وبين تنفيذ واجب « الشهادة » أمر ضرورى لكى لا يؤدى واجب ويهمل آخر .

أما « الحاجز النفسى » فإن الإسلام قد حققه بعدة أمور — منها :

الإحساس بالاستعلاء والشعور بالعزة : ﴿ ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين ﴾ (١)﴿ ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ﴾ (٢) ، وفى الحديث « .. الإسلام يعلو ولا يعلى » (٣)

الإحساس بكراهية الكفر وأهله ، وازدراء ماهم عليه والاستهانة به : **﴿ إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون ﴾ (٤)**

﴿ والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم ﴾ (٥) .

﴿ إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لايعقلون * ولو علم الله فيهم

---

(١) الآية (١٣٩) من سورة آل عمران

(٢) الآية (٨) من سورة المنافقون

(٣) جزء من حديث ورد فى البخارى ولم يعين قائله ، وقد ورد موصولا مرفوعا عند الدارقطنى ومحمد بن هارون الرويانى فى مسنده من حديث عائذ بن عمرو المزنى بسند حسن ، وهو فى فوائد أبى يعلى — من هذا الوجه — وفى أوله قصة ، وهى : أن عائذا جاء يوم الفتح مع أبى سفيان ، فقال الصحابة : هذا أبو سفيان وعائذ بن عمرو . فقال رسول الله ﷺ : هذا عائذ بن عمرو وأبو سفيان ، الإسلام أعز من ذلك ، الإسلام يعلو ولا يعلى . أراد عليه الصلاة والسلام تعليمهم البداءة بذكر المسلم (راجع فتح البارى : ٣ / ١٧٥) .

(٤) الآية (٩٨) من سورة الأنبياء .

(٥) الآية (١٢) من سورة محمد .

خيرا لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون ﴾ (١)

وإذا خيف من تأثر البعض بمظاهر علم لديهم او تقدم حسى عندهم — فذلك لأنهم **﴿ ... يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون ﴾** (٢) **﴿ فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بها فى الحياة الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون ﴾**(٣).

ومن تلك الأمور التى تحقق « الحاجز النفسى » بين المسلمين وأعدائهم : منع المسلمين من موادة الكافرين أو توليهم.

قال تعالى : **﴿ لاتجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم،أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها،رضى الله عنهم ورضوا عنه،أولئك حزب الله،ألا إن حزب الله هم المفلحون ﴾** (٤)

قال تعالى : **﴿ يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق يخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله ربكم إن كنتم خرجتم جهادا فى سبيلى وابتغاء مرضاتى تسرون إليهم بالمودة وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل * إن يثقفوكم يكونوا لكم أعداءً ويبسطوا إليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء وودوا لو تكفرون ﴾** (٥)

ويؤكد القرآن الكريم هذه المعانى،وضرورة الالتزام بها حتى لو كان بين المؤمنين والكافرين صلة رحم عادية أو أعلى درجة من صلات القرابة ألا وهى البنوة

---

(١) الآيتان (٢٢ — ٢٣) من سورة الأنفال .
(٢) الآية (٧) من سورة الروم .
(٣) الآية (٥٥) من سورة التوبة .
(٤) المجادلة (٢٢) .
(٥) الممتحنة (١ ، ٢)

فيقول : ﴿ **لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم يوم القيامة يفصل بينكم والله بما تعملون بصير** ﴾ (١)

ثم يبين جل شأنه للمسلمين : أن ما يطلبه منهم من قطع كل الأواصر بينهم وبين أعداء الله وأعدائهم من الكافرين — على صعوبته — قد كلف به مؤمنون — قبلهم — ونفذوه وقاموا به حق القيام فلهم في أسلافهم الأسوة الحسنة ، حيث تبرءوا من قومهم و كل ماهم عليه من عبادات ومعبودين وأقاموا بينهم وبين قومهم الكافرين حاجزا من العداوة والبغضاء لا ينقطع حتى يؤمن القوم بالله وحده — ويذروا كل ماهم عليه من أديان الجاهلية وعباداتها فقال جل شأنه : ﴿ **قد كانت لكم أسوة حسنة فى إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا برءاء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العدواة والبغضاء أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده ...** ﴾ (٢)

وقد يتوهم البعض فى موقف إبراهيم من أبيه ما يعارض هذا المبدأ ، ويصطدم بهذه القاعدة من قواعد العلاقات بين المسلمين وأعدائهم ، ولذلك فإن القرآن العظيم يبادر إلى إزالة هذا الوهم ، وإيضاح موقف إبراهيم ، فيقول تعالى :

﴿ **إلا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك ، وما أملك لك من الله من شىء** ﴾(٣)

إذن : فموقفه عليه الصلاة والسلام من أبيه ليس بموقف ولاء ، ولكنه موقف أملاه الوفاء بوعد سابق . فليس فيه أى خروج على القاعدة ، أو انحراف عن المبدأ .

﴿ **..... وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه ، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه إن إبراهيم لأواه حليم** ﴾ (٤) .

---

(١) الممتحنة (٣)
(٢) الممتحنة (٤)
(٣) الممتحنة (٤)
(٤) التوبة: ١١٤

هذه بعض الأمور التى جاء بها الإسلام لتحقيق الحاجز النفسى — وقد تكفلت هذه الرسالة ببيانها وإيضاحها وإظهارها ، وبيان حكمها .

أما واجب « الشهادة على الناس » — الذى حمّله الله هذه الأمة فإنه يفرض عليها أن تخالط الأمم الأخرى ، وتقيم بينها وبين تلك الأمم علاقات تتيح لها فرصة أداء واجب « الشهادة » عليها لذلك كان لابد من الاستثناء من مبدأ : ﴿ .. **إنا برءاء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده** .. ﴾ [1] . وهذا الاستثناء هو ماورد فى قوله تعالى : ﴿ **لاينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم و تقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين * إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون** ﴾ [2] .

فواجب « الشهادة على الناس » لاتقوم به إلا الأمة الوسط الخيرة ، المتميزة بشخصيتها الإسلامية المستقلة ، الممتنعة عن الذوبان فى غيرها ، أو فقدان شىء من معالم شخصيتها لتكون مثلا يحتذى ، ونموذجا به يقتدى ، وأسوة للأمم تتأسى بها ، وتترسم خطاها .

إن الصدر الأول من هذه الأمة قد أدرك أن الشهادة على الناس تعنى : أن تكون هذه الأمة قوة عالمية محرَّرة ، تقوم على العدل ، وتعمل به وتحمى حق الآخرين فى الاختيار ، وحرية إرادتهم فى إقامة مجتمع جديد يقوم على التحرر من عبادة العباد ، والتخلص منها إلى عبادة الله وحده ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة .

وأما العصور اللاحقة — للصدر الأول — فهى عصور دونت فيها العلوم الإسلامية ، وحددت فيها المفاهيم .

---

(١) الممتحنة : ٤

(٢) الممتحنة (٨ — ٩)

ومن الأمور التى حددها الفقهاء فى مجال العلاقات بين المسلمين وسواهم — من الأمم المعادية لهم ، المحيطة بهم ، والتى رفضت أن تعترف للإنسان بحق الاختيار (١) — بيان أن العالم ينقسم إلى دور ثلاثة :

— دار الإسلام

— ودار العهد

— ودار الحرب(٢)

فدار الإسلام — هى الأرض التى علت فيها كلمة الله ، وطبقت فيها أحكام شريعته ، ونفذت فيها حدوده .

ودار الحرب — هى الأرض التى لاسلطان للإسلام عليها ، ولايربط بين أهلها وأهل دار الإسلام شىء من المعاهدات بقطع النظر عن أن تكون بين المسلمين وبينها حرب معلنة فعلا أو ألا يكون بينها وبين المسلمين شىء من ذلك ، فهذه التسمية عبارة عن تصوير وتنظيم للشئون القانونية ولواقع العلاقات بين المسلمين وسواهم من الأمم المعادية (٣) .

وقد تكون المناسبة الداعية لإطلاق هذه التسمية على هذا النوع من الأرض : أنها دار يحتمل أن تعلن الحرب على دار الإسلام فى أى وقت مادام ليس بينها وبين دار الإسلام عهد ، أو نوع آخر من أنواع العلاقة : فلا يصح أن يفهم من ذلك حتمية وجود حالة الحرب(٤) بينها وبين دار الإسلام .

وهذه التسمية وإن كانت مما يستثقله الكثيرون اليوم — لكننا حين ننعم النظر فيها نجد الحكمة فيها ظاهرة بارزة : فلعلها جزء من التدابير التى اتخذها الفقهاء المسلمون لتكريس « الحاجز النفسى » بين المسلمين وأعدائهم للمحافظة

---

(١) من محاضرة للأخ د . عبد الحميد أبو سليمان «الحراب المقابلة والدوائر المتداخلة صفحة ٤ »

(٢) دار العهد فى حقيقتها من دار الإسلام ، فهى دار رضى أهلها الانضمام إلى دار الإسلام والتمتع بأمان المسلمين بصلح لا بفتح وعنوة (يراجع أحكام الذميين لعبد الكريم زيدان).

(٣) (الحراب المتقابلة والدوائر المتداخلة ص ٤)

(٤) المرجع السابق

على الشخصية الإسلامية ، وحمايتها من الذوبان فى غيرها فالأمة إذا كانت غالبة قاهرة ـــ فإنها كثيرا ما تستهين بشخصية الأمة المغلوبة ، وقدرتها على التأثير فيها ، ومن خلال استهانتها بأعدائها قد تدخل إليها من أفكار المغلوب وسلوكياته واعتقاداته ما يكون له آثار مدمرة لكيانها فى المستقبل .

وأما إذا كانت مغلوبة « فالويل للمغلوب من الغالب » كما يقولون ، فإن المغلوب كثيرا ما ينقاد بوعى أو بدون وعى إلى تقليد الغالب ومحاكاته ، لأنه ما دام الغالب غالبا فالمغلوب يظن أن كل ما يصدر عنه من فكر أو اعتقاد أوسلوك جزء من أسرار غلبته ، وعناصر قوته ، ولذلك فإنه لا شيء يحمى للأمة كيانها « كالحاجز النفسى الدقيق » مع التوازن المحكم ، والفهم العميق للواجبات المختلفة على المسلم ، وطرائق تنفيذها .

ولقد اشتمل القرآن العظيم على كثير من الأوامر والنواهى التى تكفل للمسلمين ذلك لو تمسكوا بها .

كما وردت فى السنة أحاديث كثيرة فى تنظيم هذا الأمر الخطير من شئون الأمة . وسنطلع على الكثير من ذلك فى ثنايا هذه الرسالة .

٢ ـــ ولاية المؤمنين للمؤمنين :

لقد شرع الله تعالى « الأخوة الإسلامية » رابطة بين المؤمنين ، وهى أقوى رابطة يمكن أن تقوم بين إنسان وآخر بعد الأبوة والبنوة . وقد قطع « أخوة النسب » حين يختلف الدين ، وألغى اعتبارها ليخلو مكانها لأخوة العقيدة ، وقد جاء الكتاب والسنة بتشريع كل ما من شأنه أن يدعم هذه الأخوة ، ويعززها ، ويقويها ، ونهى عن كل ما من شأنه أن يعكر صفوها ، أو يشوبها بأدنى شائبة .

ومما شرعه الله تعالى لتحقيق ذلك : إيجاب « ولاية المؤمن للمؤمن » ﴿ والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض ﴾ (١) ، وقطع « الولاية » بين

---

(١) الآية (٧١) من سورة التوبة .

المؤمنين وغيرهم ، لأن ﴿ **والذين كفروا بعضهم أولياء بعض** ﴾ (١) وليس من شأنهم أن يوالوا المؤمنين وهم كافرون بما آمنوا به فأهل الكفر إليهم أقرب ، وأهل الكفر صف واحد فى مواجهة المسلمين حتى يردوهم عن دينهم إن استطاعوا (٢) ،فالواجب إذن : أن يكون المسلمون صفا واحدا فى مواجهة الكفر — حتى يؤمنوا بالله وحده (٣) ، ويكفروا بما اصطنعوا من آلهة أو يرفعوا عن المؤمنين والراغبين فى الإيمان سيوف ضطهادهم ليتيحوا لهم حرية الاختيار .

٣ — التسامح والتهاون :

وإن أول الوهن الذى أصيب به المسلمون — هو وقوعهم فى أزمة التردد فى هذا الأمر ، هذا التردد الذى جرهم بدوره إلى الخلط بين التسامح الذى أمروا به مع أهل ذمتهم الذين — هم تحت سلطانهم ، والذين هم فى فقر إلى رعايتهم ، والوفاء بالعهود لمن عاهدوا منهم ، وبين التساهل مع أعداء الله وأعدائهم من المحاربين لله ولرسوله فكثيرا ما وضعوا التساهل والتعاون موضع الحزم والصلابة ، وهل أضاعهم اليوم غير هذا ؟ .

إن المسلمين اليوم — أحوج ما يكونون إلى العمل على إعادة بناء هذا « الحاجز النفسى » بينهم وبين أعدائهم ليبقوا على ما قد يكون بقى لهم من عرى الإسلام ، ويرموا ما قد رث منها وبلى فإن الكفار ما استطاعوا النيل من هذه الأمة إلا بعد أن تمكنوا من هدم « الحاجز النفسى » بينهم وبين المسلمين بوسائل متعددة، وخطط مختلفة ، وجهود متصلة بدأت منذ أن انتصر الإسلام وقامت دولته ، ويئس الكفار من تدميرها ، أو النيل منها .

---

(١) الآية (٧٣) من سورة الأنفال .
(٢) اقتباس من الآية (٢١٧) من سورة البقرة .
(٣) اقتباس من الآية (٤) من سورة الممتحنة .

لقد أدرك الكفار أن تدمير هذه الأمة لايمكن أن يتم إلا من الداخل ، والولوج إلى داخل هذه الأمة لا يمكن أن يتم إلا بعد تخريب ذلك « الحاجز النفسى » فأجمعوا أمرهم على ذلك وكان من أول ما أصيب به المسلمون ــ بعد ذلك ــ الإسراف فى اتخاذ الجوارى والسرارى والزوجات الكافرات .

كما أسرفوا فى اتخاذ الكتاب والوكلاء والأطباء والمترجمين من الكفرة ، فأتيحت للكفار الفرص الواسعة للاطلاع على عورات المسلمين ، والتدخل فى أخطر شئونهم وما كان فى مقدورهم الوصول إلى ذلك لو بقى « الحاجز النفسى » قائما فى نفوس المسلمين .

إن معظم الفتن الداخلية والحروب الأهلية التى وقعت بين المسلمين وعوامل الضعف والانحطاط التى اجتاحت ديار الإسلام لو درست بإنعام ودقة لوجدت أصابع هؤلاء الكفار وراءها ، واستعراض ذلك بتفصيل تقصر عنه المجلدات ، ولذلك فإننا سنقتصر على الحديث فى أثر سقوط هذا « الحاجز النفسى » على دولة واحدة من دول الإسلام ، تلك هى « الدولة العثمانية » فهى الدولة التى فى عصر أفول شمسها كتبت هذه الرسالة موضوع التحقيق .

٤ ــ الحاجز النفسى ودولة آل عثمان :

كانت الدولة العثمانية تعتبر نفسها ويعتبرها المسلمون امتدادا للدولة الإسلامية بقطع النظر عن بعض الانحرافات السياسية ، وكثير من الأخطاء التطبيقية .

وكان أعداء الإسلام ينظرون إليها نفس النظرة بل كانوا يعتبرونها القلعة الأخيرة من قلاع الإسلام ، فإذا سقطت انتهى الإسلام واستراحوا منه إلى الأبد يقول « برنارد لويس » المؤرخ اليهودى المعروف : « .... كانت الإمبراطورية العثمانية منذ تأسيسها حتى زمن سقوطها دولة تكرس قواها فى سبيل تقدم شوكة الإسلام ، وحمايته ضد أى اعتداء خارجى وقد ظل العثمانيون طوال ستة قرون تقريبا فى حروب مستمرة ضد الغرب المسيحى ، **أولا** : لفرض حكم إسلامى على جزء كبير من

أوربا ، وهى محاولة رافقها النجاح .

وثانيا : لشن حرب دفاعية تأخيرية مديدة تقف فى وجه الهجوم المعاكس الذى قام به الغرب » (١)

لهذا استحقت « الدولة العثمانية » كل تلك المحاولات الضخمة والجهود الهائلة لتحطيمها وتفتيتها .

وقد استهدفت تلك المحاولة أول ما استهدفت « الأخوة الإسلامية » لأنها الرابطة التى تربط جميع الشعوب المسلمة المنضوية تحت راية هذه الدولة لأن إضعاف هذه الرابطة ، وإيجاد روابط بديلة عنها يعتبر أهم السبل لتخضيد شوكة هذه الدولة وتفتيتها ، والقضاء عليها .

ونتيجة لانهيار « الحاجز النفسى » بين المسلمين وأعدائهم — كانت الطرق ممهدة أمام محاولات الأعداء من اليهود والنصارى وأعوانهم لتدبير كل ما لديهم من ألوان التآمر على الأمة الإسلامية وهم آمنون ..

٥ — مواقف بعض سلاطين آل عثمان :

لم يقف ضعف « الحاجز النفسى » عند بعض سلاطين آل عثمان عند حد الإسراف فى اتخاذ الكتاب والخدم والحشم والجوارى والسرارى من « أهل الكتاب » كما فعل بعض من سبقهم من الحكام — ولكنهم تجاوزوا ذلك فمنحوا هؤلاء نوعا من الاستقلال القضائى مما أدى إلى « ازدواجية القضاء والتشريع » والانتقاص من « الولاية الإسلامية » فى أرضها ، ففى سنة (١٤٥٣) سقطت القسطنطينية فى أيدى المسلمين الأتراك ، وأراد السلطان محمد الفاتح (١٤٢٩ — ١٤٨١) م أن يظهر للنصارى التسامح الذى يتحلى به المسلمون نحو أعدائهم بالأمس ، واستعدادهم لفتح صفحة جديدة فسهل للنصارى سبيل الإقامة فى جميع أرجاء

---

(١) راجع كتاب « نشوء القومية العربية » .

الدولة العثمانية ، ومنحهم الكثير من التسهيلات التى جعلتهم يفضلون الإقامة فى أرض الدولة العثمانية على الإقامة فى بعض البلدان النصرانية ، ولقد بلغ تساهله معهم حد أن أباح لرجال الدين النصارى من رؤساء الطوائف أن يتولوا بأنفسهم القضاء فى شئون طوائفهم ، كما أبقى لبطرك الروم سلطانه القضائى فى المعاملات والعقوبات ثم فعل مثل ذلك مع بطرك الأرمن ، ثم مع رهبان اليهود (١)

وهذه سياسة خاطئة من هذا السلطان المسلم وجهل بحدود التسامح المطلوب مع « أهل الذمة » كان له أخطر الآثار وأفدح النتائج فى سياسة من جاء بعده ..

ولم يقف عند هذا الحد بل استبدل بالقصاص الغرامات المالية (٢) مما فتح الباب أمام تعطيل الحدود والأحكام الشرعية .

وسار خليفته بايزيد (١٤٤٧ — ١٥١٢ م) سيرته فى هذه السياسة ، وزاد عليها عقد معاهدات مختلفة مع « روسيا » أعطيت بموجبها بعض الامتيازات للتجار الروس ، وكذلك مع « بولونيا » وغيرهما .

ولم يتغير الأمر فى عهد « السلطان سليم » (١٧٤١ — ١٥٢٠ م) وقد تولى بعده السلطان « سليمان القانونى » (١٤٩٤ — ١٥٦٦ م) الذى بلغت الدولة العثمانية فى عهده أعلى درجات القوة العسكرية وتقدمت الفتوحات فى أيامه تقدما عظيما ، ولكنه كان أكثر السلاطين العثمانيين إسرافا فى منح الامتيازات لغير المسلمين ، وكان من أهم أسباب ذلك أنه كان متزوجا بامرأة روسية تدعى « روكسلانا » وتسميها المصادر التركية « خورم » كان « سليمان » شديد الحب لها ، كثير الأخذ بآرائها ، وهى التى أنجبت له ولده « سليم » وبذلت كل الجهود لتجعله يتولى السلطنة من بعد أبيه بعد أن حملت أباه على قتل إخوته وأبنائهم بدسائسها .

لقد كانت الانتصارات الحربية أهم ما يشغل بال السطان « سليمان » فكل

(١) انظر تاريخ الدولة العلية العثمانية .

(٢) الشريعة الاسلامية والاجانب فى دار الاسلام ص (١٨ — ١٩)

ما يساعده على تحقيق شيء من هذه الانتصارات يعتبرو أمرا مطلوبا ومرغوبا والحروبه مع النمسا والمجر والفرس وغيرهم وجد فى إبرام معاهدة مع فرنسا ما يتيح له فرصة التفرغ التام لأعدائه الآخرين ، وفى أوائل فبراير من سنة (١٩٣٦) تم الاتفاق بين سفير فرنسا لافورى والباب العالى على منح (امتيازات) واسعة جاءت ضمن معاهدة من ستة عشر بندا اعتبرها الباب العالى منحته إلى أسير فضله «فرانسوا الأول » ملك فرنسا — الذى حرره « الباب العالى » من أسر الأسبان . أما « فرانسوا الأول » فقد سعى إلى إبرام تلك المعاهدة ، وبذل الكثير فى سبيل إبرامها لتحرير النصارى من مواطنيه وغيرهم من الخضوع لأحكام الإسلام ، وليساعده ذلك على بسط سلطانه ونفوذه بين الأمم النصرانية ، وليعزز مكانته فى نفوس مواطنيه ، وليثبت لهم عكس ما كانوا يظنون — من أنه انحراف فى ولائه لسلطان المسلمين .

٦ — وهذه هى المعاهدة كما نقلها محمد فريد فى كتابه « تاريخ الدولة العلية » .

«ليكن معلوما لدى العموم أنه فى شهر ... سنة (٩٤٢) من الهجرة المحمدية ، الموافق شهر فبراير سنة (١٥٣٦) من الميلاد ، قد اتفق بمدينة الآستانة العلية كل من المسيو (جان دى لافورى) مستشار وسفير صاحب السعادة الأمير (فرانسوا) المتعمق فى المسيحية ملك فرنسا ، المعين لدى الملك العظيم ذى القوة والنصر السلطان (سليمان) خاقان الترك ... إلخ ألقابه ، والأمير الجليل ذى البطش الشديد سر عسكر السلطان بعد أن تباحثا فى مضار الحرب وما ينشأ عنها من المصائب ، وما يترتب على السلم من الراحة والطمأنينة على البنود الآتية :

البند الأول : قد تعاهد المتعاقدان بالنيابة عن جلالة الخليفة الأعظم وملك فرنسا على السلم الأكيد والوفاق الصادق مدة حياتهما وفى جميع الممالك والولايات والحصون والمدن والمين والثغور والبحار والجزائر وجميع الأماكن المملوكة لهم — الآن — أو التى تدخل فى حوزتهم فيما بعد بحيث يجوز لرعاياهما وتابعيهما السفر

بحرا بمراكب مسلحة أو غير مسلحة والتجول فى بلاد الطرف الآخر ، والمجىء إليها ، والإقامة بها أو الرجوع إلى الثغور والمدن أو غيرها بقصد الاتجار على حسب رغبتهم بكمال الحرية بدون أن يحصل لهم أدنى تعد عليهم أو على متاجرهم .

البند الثانى : يجوز لرعايا وتابعى الطرفين البيع والشراء والمبادلة فى كافة السلع الغير ممنوع الاتجار فيها ، ولسيرها ونقلها برا وبحرا من مملكة إلى أخرى مع دفع العوائد والضرائب المعتادة قديماً بحيث يدفع الفرنساوى فى البلاد العثمانية ما يدفعه الأتراك ، ويدفع الأتراك فى البلاد الفرنساوية ما يدفعه الفرنساويون بدون أن يدفع أى الطرفين عوائد أو ضرائب أو مكوسا أخرى .

البند الثالث : كلما يعين ملك فرنسا قنصلا فى مدينة القسطنطينية أو فى بيرا أو غيرها من مدائن المملكة العثمانية : كالقنصل المعين ــ الآن ــ بمدينة الإسكندرية يصير قبوله ومعاملته بكيفية لائقة .

ويكون له أن يسمع ويحكم ويقطع بمقتضى قانونه وذمته فى جميع ما يقع فى دائرته ــ من القضايا المدنية والجنائية بين رعايا ملك فرنسا بدون أن يمنعه من ذلك حاكم أو قاض شرعى أو صوباشى أو أى موظف آخر ، ولكن لو امتنع أحد رعايا الملك عن إطاعة أوامر أو أحكام القنصل فله أن يستعين بموظفى جلالة السلطان على تنفيذها وعليهم مساعدته ومعاونته ، وعلى أى حال ليس للقاضى الشرعى أو أى موظف آخر أن يحكم فى المنازعات التى تقع بين التجار الفرنساويين ، وبين باقى رعايا فرنسا حتى لو طلبوا منه الحكم بينهم .

وإن أصدر حكما فى مثل هذه الأحوال يكون حكمه لاغيا لايعمل به مطلقا !!!

البند الرابع : لايجوز سماع الدعاوى المدنية التى يقيمها الأتراك أو جباة الخراج أو غيرهم من رعايا جلالة السلطان ضد التجار أو غيرهم من رعايا فرنسا ، أو الحكم عليهم فيها مالم يكن مع المدعين سندات بخط المدعى عليهم ، أو حجة رسمية صادرة من القاضى الشرعى أو القنصل الفرنساوى ، وفى حالة وجود

سندات ، أو حجج لاتسمع الدعوى أو شهادة مقدمها إلا بحضور ترجمان القنصل !!

البند الخامس : ولا يجوز للقضاة الشرعيين أو غيرهم من مأمورى الحكومة العثمانية سماع أى دعوى جنائية ، أو الحكم ضد التجار ورعايا فرنسا بناء على شكوى الأتراك أو جباة الخراج أو غيرهم — من رعايا الدولة العلية ، بل على القاضى أو المأمور الذى ترفع إليه الشكوى أن يدعو المتهمين بالحضور « بالباب العالى » : محل إقامة الصدر الأعظم الرسمى !!

وفى حالة عدم وجود « الباب » المشار إليه (أى إذا حصلت الواقعة فى غير العاصمة الآستانة) يدعوهم أمام أكبر مأمورى الحكومة السلطانية ، وهناك يجوز قبول شهادة جابى الخراج والشخص الفرنساوى ضد بعضهما !!

البند السادس : لايجوز محاكمة التجار الفرنساويين ومستخدميهم وخادميهم .. فيما يختص بالمسائل الدينية أمام القاضى أو السنجق بيك أو الصوباشى أو غيرهم — من المأمورين بل تكون محاكمتهم أمام الباب العالى . ومن جهة أخرى يكون مصرحا لهم باتباع شعائر دينهم ، ولا يمكن جبرهم على الإسلام أو اعتبارهم مسلمين مالم يقروا بذلك غير مكرهين .

البند السابع : لو تعاقد واحد أو أكثر من رعايا فرنسا مع أحد العثمانيين ، أو اشترى منه بضائع أو استدان منه نقودا ثم خرج من الممالك العثمانية — قبل أن يقوم بما تعهد به ، فلا يسأل القنصل أو أقارب الغائب أو أى شخص فرنساوى آخر عن ذلك مطلقا ، وكذلك لايكون ملك فرنسا ملزما بشىء ، بل عليه أن يوفى طلب المدعى من شخص المدعى عليه أو أملاكه لو وجدت بأراضى الدولة الفرنساوية ، أو كان له أملاك بها !!

البند التاسع : يكون لتجار فرنسا ورعاياها الحق فى التصرف فى كافة متعلقاتهم بالوصية بعد موتهم ، وعند وفاة أحد منهم — وفاة طبيعية أو قهرية عن وصية : فتوزع أمواله وباقى ممتلكاته — على حسب ما جاء بها ، ولو توفى ولم يوص فتسلم تركته إلى وارثه ، أو الوكيل عنه بمعرفة القنصل لو كان فى محل وفاته

قنصل — وإلا فتحفظ التركة بمعرفة قاضي الجهة بعد أن تعمل بها قائمة جرد على يد شهود .. أما لو كانت الوفاة فى جهة بها قنصل فلا يكون للقاضى أو مأمور بيت المال أو غيرهما حق فى ضبط التركة مطلقا .. ولو سبق ضبطها بمعرفة أحد منهم — يصير تسليمها إلى القنصل أو من ينوب عنه لو طلبها قبل الوارث أو وكيله ، وعلى القنصل توصيلها وتسليمها إلى صاحب الحق فيها .

البند الخامس عشر : كل تابع لملك فرنسا إذا لم يكن أقام بأراضى الدولة العلية مدة عشر سنوات كاملة بدون انقطاع لايلزم بدفع الخراج ، أو أى ضريبة أيا كان اسمها .. ولا يلزم بحراسة الأراضى المجاورة ، أو مخازن جلالة السلطان ولا بالشغل فى الترسانة أو أى عمل آخر . وكذلك تكون معاملة رعايا الدولة فى بلاد فرنسا .

وقد اشترط ملك فرنسا أن يكون « للبابا وملك انجلترا أخيه وحليفه الأبدى وملك ايقوسيا » الحق فى الاشتراك بمنافع هذه المعاهدة — لو أرادوا — بشرط أنهم يبلغون تصديقهم عليها إلى جلالة السلطان ، ويطلب منهم اعتماد ذلك فى ظرف ثمانية شهور تمضى من هذا اليوم (١)

تلك هى اتفاقية الامتيازات التى جرَّت على الدولة العثمانية الويلات ، ومهدت للقضاء عليها ، ولو أنها صدرت عن قائد ضعيف أو منهزم — لكان لها ما يبررها ولكن صدورها عن أعظم سلاطين آل عثمان فتحا ، وفى وقت بلغت فيه الدولة أوج عظمتها وبلغت فيه فرنسا أحط دركات الضعف حتى أن « فرانسوا الأول » هذا قد أسره الأسبان وحرره السلطان « سليمان » . إن صدورها فى هذا الوقت بالذات لهو أمر يدعو إلى أشد أنواع الاستغراب فهل كانت « روكسلانا » وراء ذلك كله ؟ لاشيء يمنع ذلك فـ «روكسلانا » هى التى أوغرت صدر السلطان على بنيه من غيرها وأبنائهم ، وحملته على قتلهم — جميعا — ليخلو الجو لولدها « السلطان سليم » (٢) .

(١) انظر تاريخ الدولة العلية العثمانية (٩١ — ٩٤)
(٢) المرجع السابق صفحة (١٠٦)

ولقد ظلت هذه الاتفاقية سائدة تنخر بنودها فى كيان الدولة العثمانية فترة طويلة ، ومع أنه قد بدرت من فرنسا بوادر كثيرة كانت كافية لتنبيه الدولة العلية لسوء القصد وخبث النيات ، إلا أن « الباب العالى » لم ينتبه .

٧ ــ الامتياز الأكبر :

وفى سنة (١٦٧٠ م) عملت فرنسا على تجديد تلك الامتيازات ، وذلك فى عهد السلطان محمد الرابع ولكن « الصدر الأعظم » تردد فى ذلك ، وأخبر سفير « لويس الرابع عشر » « دى نوائتل » بأن « .... تلك المعاهدات لم تكن إلا منحا سلطانية ، لا معاهدات اضطرارية .. »(١) وكادت تقع الحرب بين البلدين بسبب ذلك ــ وليتها وقعت ــ ولكن فرنسا تراجعت وآثرت العمل الصامت والدبلوماسية الخفية لإقناع « الباب العالى » بتجديد تلك الامتيازات فتم لها ما أرادت ، وأضيف إلى مافيها بنود تجعل من فرنسا حامية لجميع « الكاثوليك » القاطنين فى أراضى الدولة العلية . مهما كانت جنسياتهم ، ونوط خدمة بيت المقدس ومقدسات النصارى فيها بالرهبان « الكاثوليك » (١) فقط مع تسهيلات أخرى للتجار الفرنسيين (٢) .

وقد سمى هذا بـ « الامتياز الأكبر » ومما جاء فيه « .... إذا ثارت منازعات بين القناصل والتجار الفرنسيين وغيرهم من قناصل وتجار دولة مسيحية جاز لهم باتفاق الخصوم ، وبناء على طلبهم أن يحتكموا إلى سفرائهم لدى الباب العالى وإذا لم يشاءوا أن يحتكموا إلى الباشا والقاضى أو غيرهما من السلطات المحلية فلا يجوز لهؤلاء أن يلزموهم بالخضوع لحكمهم ، أو أن يزعموا لأنفسهم حق الاشتغال بأمرهم » ..

وإذا كان النزاع بين أجانب وعثمانيين فالمحاكم المحلية صاحبة الولاية فى الأقضية الصغرى فإذا تجاوزت القضية أربعة آلاف قرش اختص بها الديوان السلطانى (٣)

---

(١) تاريخ الدولة العلية ١٣٢)

(٢) المصدر نفسه (١٥٠)

(٣) المصدر السابق وكتاب الشريعة الإسلامية والأجانب فى دار الإسلام .

٨ ــ تجديد االامتيازات :

وقد جددت هذه الامتيازات مرة أخرى سنة (١٧٤٠) ونص فى هذا التجديد : على أن حقوق الأجانب تبقى ثابتة دون حاجة إلى تجديدها مرة أخرى

ومثل هذه الامتيازات حصل عليها سفير الملكة « اليزابيث » الأولى ، وذلك فى سنة (١٥٨٠) م وفيها ــ أيضا ــ تشكيل محاكم خاصة تتبع القنصليات البريطانية فى كافة أنحاء الدولة العلية للنظر فى جميع القضايا التى يكون طرفاها أو أحدهما من الإنكليز .

وحذت سائر الدول النصرانية حذو فرنسا وبريطانيا فى الحصول على هذه الامتيازات : ففى سنة (١٦٦٦) م عقدت الدولة العثمانية اتفاقية مشابهة مع أسرة « هابسبورج »

وفى سنة (١٨٣٠) م حصلت الولايات المتحدة الأمريكية على ذات الامتيازات التى حصلت عليها دول أوروبا الصليبية ، وفى سنة (١٨٣٨) م حصلت بلجيكا على ذلك الامتياز أيضا .

وبلغت استهانة الدول النصرانية بالدولة العثمانية أن طلب القنصل البريطانى فى « قبرص » من حكومته الإذن له ببناء سجن بجوار القنصلية ليسجن فيه من يوقع عليهم عقوبة السجن من مواطنيه لئلا يضطر إلى تسليمهم إلى سلطات البلاد وذلك فى سنة (١٨٤٤)م..

إن من البين الواضح : أن دولة قد وصلت إلى هذا الحد من الهوان على أعدائها ــ قد هزمت ــ ولم يبق أى حاجز يحميها أو يعرقل دخول التيارات المعادية إليها .

٩ ــ الغزو الفكرى :

فإذا أضيف إلى ذلك : أن النهضة الأوربية الحديثة كانت قد بدأت تعطى بواكير ثمارها ، التى خلبت الألباب ، وأزاغت الأبصار ، وأدهشت أولئك الذين كانوا يتوهمون أن مجرد انتسابهم للإسلام ، وتسمية أنفسهم بالأسماء الإسلامية كاف لتحقيق النصر المؤيد لهم على سائر الناس ، ندرك ــ آنذاك ــ كم كانت

الهزيمة النفسية التى منوا بها عميقة ولذلك فإنها أفقدتهم كل اتزان ــ فلا غرابة إذا وجدناهم يسارعون إلى أعدائهم ــ أنفسهم ــ يبحثون عندهم عن علاج لأمراض كانوا ــ هم ــ وراءها ولك أن تتدبر حالة عدو لدود خطير وجد ــ فجأة - ألد أعدائه ، وأخطرهم يرتمى بين يديه يرجوه أن يصف له سبيلا للخلاص ، وطريقا للإنقاذ أى سبيل سيصف ، وأى سم ناقع سيوصيه به ؟ ..

١٠ ــ توصية الدول النصرانية :

لقد أوصت الدول النصرانية الخارجية والمستشارون النصارى واليهود وأعوانهم والجمعيات السرية ، والمخدوعون بانتهاج سبيل أوربا باعتباره الطريق الوحيد للتخلص من مشاكل الحكم والإدارة والقضاء وغيرها ، فبادر أولئك المغلوبون على أمرهم من الحكام بتلقف جملة من القوانين والتشريعات الأوربية بحجة إصلاح مؤسسات الدولة وشئونها الإدارية والتجارية والقضائية .

ففى سنة (١٨٤٠) م صدر قانون « الجزاء » الذى استمدت معظم مواده من «قانون العقوبات » الفرنسى ليحل محل « الحدود الشرعية » .

وفى العام ــ نفسه ــ أنشىء « مجلس الأحكام العدلية » ليتولى مهمة النظر فى الدعاوى ــ التى تقام ضد كبار الموظفين فى الدولة .

وفى سنة (١٨٥٠) م صدر « قانون التجارة » الذى سمح بموجبه للتجار العثمانيين بممارسة التجارة بنفس الأساليب ، وبموجب نفس الأحكام ــ التى يتجر بموجبها التجار الأجانب بما فى ذلك التعامل « بالربا » وغيره من المحرمات ، وذلك بحجة دفع الحيف عن التاجر الوطنى ، وإعطائه نفس فرص الربح المعطاه للتاجر الأجنبى بموجب « الامتيازات الخاصة بالأجانب » .

وفى سنة (١٨٦١) م أنشئت « محاكم تجارية خاصة » لتتولى النظر فى القضايا التجارية المختلفة ، ويقضى فيها بموجب « القانون التجارى المذكور ».

وفى سنة (١٨٦٠) م نشبت حرب أهلية فى لبنان فسارعت الدول النصرانية : بريطانيا وفرنسا والنمسا وبروسيا وروسيا ، إلى الإيعاز إلى سفرائها برفع « بروتوكول » إلى الباب العالى بموجبه أصبحت لبنان سنجقا نصرانيا يتمتع

بالحكم الذاتى ، ويحكمه متصرف نصرانى .

فكان هذا البروتوكول مفتاحاً لنظام إدارى جديد أحدث انقلابا فى الإدارة العثمانية : فقد قسمت البلاد العثمانية إلى وحدات إدارية مشابهة للوحدات الادارية الفرنسية .

وفى سنة (١٨٦٩) م صدر « قانون الجنسية » الذى كان ضربة وجهت إلى « أخوة الإسلام » بوصفها الرابطة التى كانت بين المسلمين : فقد أعطى القانون المذكور المشاعر القومية ، والعواطف العنصرية دفعة هيأت « الرابطة القومية » لتحل محل « الرابطة الإسلامية » وبذلك خطت الدولة العثمانية خطواتها الواسعة نحو التمزق .

ولم يكتف المطبوعون « بثقافة النصارى واليهود » باستيراد ذلك القانون ، فقد أطمعهم نجاحهم فى تطبيقه ، وفرضه على الأمة بتطبيق المزيد — من تلك الأنظمة فأخذوا يطالبون بتطبيق جميع النظم الدستورية الغربية ، وإلغاء كل ماهو إسلامى .

١١ — الفكر الاتحادى ومصادره :

وقد وصف مدحت باشا الدساتير الغربية : « بأنها العامل الأول فى تقدم الشعوب ورقيها ، وأن على تركيا إذا أرادت أن تبقى فى مصاف الدول العظمى ، وتواكب هذه الدول فى مضامير التقدم العلمى أن تتبع نفس النظم التى تسير عليها الدول العظمى » !! ومدحت هذا رجل « تركيا الفتاة » الأول ، والمفكر الأول فيها ، ونظرا لاتجاهاته المنحرفة عن الإسلام وأثرها البالغ، فإن كافة أعداء الإسلام اتفقوا على دعمه ، وتأييده ، وتمهيد السبل أمامه ليصل إلى منصب « الصدر الأعظم » ليوجه للدولة العثمانية ، ولجميع القيم التى تقوم عليها الضربة القاضية ، فنشط ومعه سائر عملاء اليهود والنصارى ، وعناصر الجميعات السرية التخريبية — فى العمل لإحلال « الفكرة القوميةالطورانية » محل رابطة « الأخوة الإسلامية » وشكلت جمعية « تركيا الفتاة » أو « الاتحاد والترقى » لتواصل عملية هدم الخلافة تحت الشعار التمثيلى المعروف : « حريت ، عدالت ، مساوات »

ومعروف أن المطلوب حرية اليهود والنصارى — من عملاء الدول الغربية — وتسويتهم بأبناء الأمة تسوية تامة تتيح لهم كل فرص الهدم والتخريب فذلك هو الذى يحقق مفهوم العدالة من وجهة نظرهم .

لقد استمد مدحت وأعوانه فكرتهم « الطورانية » من كتاب ألفه يهودى فرنسى يدعى « كوهين » وكانت فكرة كتاب كوهين هذا تدور حول كون الطورانيين فيما مضى شعبا ذكيا ممتازا ، لكنه أخذ بالتقهقر والانحلال عندما تخلى عن الخصائص التى كان يتميز بها فى صحارى آسيا الوسطى واعتنق الإسلام دينا وحضارة .

ولقد أصبح هذا الكتاب « الكتاب المقدس » لجمعية « الاتحاد والترقى » فمنه أخذ أعضاء هذه الجمعية ومفكروها يستمدون أفكارهم .

ومما يستحق التأمل أن هذا الكتاب انتشر بين الاتحاديين بواسطة قنصل فرنسا العام فى « سلانيك » . ثم جاء « ألبرت كوهين » وهو يهودى — من الدونمة — وهو الذى عرف فيما بعد باسم « تكين ألب » فألف كتابه « التركية والنزعة إلى الاتحاد التركى » .

وتبعه « ضياء كوك ألب » بسلسلة من الكتابات — كلها — تستهدف نشر النزعة العنصرية والاتجاهات القومية ، وسار على منوالهم عدد من الكتاب اليهود ، أو ذوى الأصول اليهودية فى العمل المتواصل لإحياء الروح العنصرية ، ونشر النزعة الإقليمية لإرجاع الشعب التركى إلى ماكان عليه قبل الإسلام حتى آتت تلك الجهود الخبيثة ثمارها الحنظلية .

وقد وصف المرحوم الأمير شكيب أرسلان هذه الفئة المجرمة الضالة وأفكارها وصف الخبير بها فقال : « ..... وهناك فئة ثانية تدعى الفئة الطورانية ، وأشهر دعاتها ضياء كوك ألب ، وأحمد أغائف ، ويوسف آقشور — اللذان قدما من الروسية — وجلال ساهر ، ويحيى كمال ، وحمد الله صبحى — رئيس وجاق ترك يوردى — ومحمد أمين بك الشاعر الملى وكثير من الأدباء والمفكرين ، وأكثر الطلبة والنشء الجديد ، وهؤلاء يزعمون : أن الترك — هم من أقدم أمم البسيطة وأعرقها

مجدا ، وأسبقها إلى الحضارة ، وأنهم هم والجنس المغولى واحد فى الأصل ، ويلزم أن يعودوا واحدا ، ويسمون ذلك بـ « الجامعة الطورانية » ولم يقتصروا منها على الترك الذين فى سيبريا وتركستان الصين وفارس والقوقاس والأناضول والروملى ، بل مبدؤهم مد هذه الرابطة إلى المغول فى الصين وإلى المجر والفنلانديين فى أوربا ، وكل ما يقال إنه ينتمى إلى أصل طورانى .

وشعارهم عدم التدين وإهمال (الجامعة الإسلامية) إلا إذا كانت خادمة لنفوذ (القومية الطورانية) فتكون عندئذ واسطة لاغاية .

وقد غلا كثير من هذه الفئة فى (الطورانية) حتى قالوا : نحن أتراك فكعبتنا (طوران) ، وهم يتغنون بمدائح جنكيز ، ويعجبون بفتوحات المغول ولا ينكرون شيئا من أعمالهم وينظمون الأناشيد (للأحداث) فى وصف الوقائع الجنكيزية ليطبعوهم على الإعجاب بها .... » (١)

١٢ ــ تفشى الأمية الدينية :

إن أهم ما سهل على هؤلاء مهمتهم فشو الأمية الدينية بين أوساط الأمة ، وانهيار « الحواجز النفسية » بين أبناء الأمة وأعدائها ، فهذان العاملان ــ هما اللذان فتحا عقول المسلمين أمام أفكار الكفار وتصوراتهم ، وأشرع قلوبهم أمام معتقداتهم مما جعل الأمة تفقد شخصيتها وتتخلى عن دينها ، وتعزله عن الحياة ، وتتجه فى طريق القوميات العلمانية ، والأفكار الإلحادية .

إن هذين الأمرين : الأمية الدينية ، وسقوط الحاجز النفسى ــ هما اللذان مهدا السبيل أمام انتشار الجمعيات السرية ، والأحزاب التخريبية كالماسونية والبهائية والقاديانية ، وسائر الهيئات المنحرفة الأخرى التى ولدت بعدها ، وتغلغلت بين المسلمين وقضت على وحدتهم ، وفرقت كلمتهم وجعلت بأسهم بينهم ، وحولت أسلحتهم إلى صدورهم .

ولقد بلغت الغفلة بالمسلمين حدا مكن اليهود وأعوانهم من دس الأفكار

---

(١) انظر حاضر العالم الإسلامى : (١ / ١٥٨ ــ ١٥٩)

المنحرفة ـــ وحدها ـــ فيهم ، بل ومكن لهم من دس الأشخاص القياديين والزعماء القوميين بينهم : فالجمعية الكبرى ـــ التى تتحمل المسئولية الأولى عن « هدم الخلافة » ـــ « جمعية الاتحاد والترقى » : لم يكن بين زعمائها وقادتها عضو واحد من آباء مسلمين ، أو أصل تركى : فأنور باشا « ابن رجل بولندى مرتد عن الإسلام و « جاويد » من أبناء يهود الدونمة وكذلك الآخرون إلى أن وصل الأمر إلى « أتاتورك » المنحدر من يهود الدونمة فى « سلانيك » .

ثم تتابعت عمليات الهدم لما بقى من أحكام الشريعة : فألغيت المحاكم الشرعية ، وأضيفت أعمالها إلى المحاكم المدنية ثم ألغيت أجهزة التعليم الإسلامية ومنع التعليم الإسلامى ، وألغيت الحروف العربية ، واستبدلت بها الاحرف اللاتينية وسلطت جميع أجهزة الإعلام للقيام بعمليات غسل الدماغ فى تركيا ، وإقناع هذا الشعب المسلم بأن الإسلام كان سبب تأخره ، وأنه سيتقدم فى ظل القومية ، وأن « الشريعة العتيقة » كما كانوا يسمون الشريعة الإسلامية وراء كل جوانب القصور فى حياة تركيا . وهكذا تحولت الراية الواحدة إلى أربع وأربعين راية « لأربع وأربعين دولة » وأصبح دون توحيد ولايتان من ولايات تلك الدولة « خرط القتاد » كما يقولون . وأصبحت « تركيا » التى كانت سيدة الدنيا فى ظل الإسلام عضوا ذليلا تابعا فى حلف « شمال الأطلسى » يضع كل إمكاناته فى خدمة أعدائه ، فهل من معتبر ؟

١٣ ـــ إلغاء الامتيازات وثمنه الباهظ :

يفتخر الاتحاديون بأنهم أفلحوا فيما أخفق فيه السلاطين ـــ من إلغاء « الامتيازات الأجنبية » ويغضون الطرف عن الثمن الذى دفعوه .

ففى ٢٥ فبراير من سنة (١٨٥٦) عقد مؤتمر دولى فى باريس فتقدمت تركيا بطلب لإلغاء « الامتيازات » ، لما ثبت من إضرارها بمصالح المواطنين والأجانب ـــ معا وانتقاصها لسيادة الدولة ، ولأنها قد قامت بحملة كبيرة من الإصلاحات فى النظم التشريعية والقضائية والإدارية وأخذت بمقترحات الدول

الأوربية ، وأنشأت « محاكم مدنية » وقصرت اختصاصات المحاكم الشرعية على مسائل « الأحوال الشخصية » ولكن الدول الأوربية المجتمعة رفضت الطلب التركى ، وصدق الله — تعالى — إذ يقول : ﴿ **حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا** ﴾ ويقول : ﴿**ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم**﴾ وأمام هذا الرفض وأمام إحساس تركيا بالخداع الأوربى رأى السلطان عبد المجيد أن يستعيد سلطة الدولة فى المرحلة الأولى — على مواطنى الدولة — من أهل الذمة — ويبقى « للمستأمنين » من الدبلوماسيين والتجار وغيرهم امتيازاتهم ، وليستعرض السلطان ما بقى له من قوة أمام الأوروبيين ، فقد أصدر فى احتفال ضخم — فى (١٨ / ٢ / ١٨٥٦) ما عرف بـ « الخط الهمايونى » الذى نظم اختصاصات مجالس الطوائف ، وجاء فى هذا الخط :

- الشريعة الإسلامية — هى القانون العام فى المعاملات .
- سحب اختصاصات المجالس « الملية » فى النظر فى المنازعات التجارية والجنائية وإحالتها إلى المحاكم المحلية المختصة .
- حصر اختصاص المجالس الملية فى النظر فى منازعات «الأحوال الشخصية » بشروط منها : اتحاد الملة ، وتراضى الخصوم ، وإلا فإن « القضاء الشرعى الإسلامى » هو المختص بذلك .

١٤ — مجلة الأحكام العدلية :

ثم خطا السلطان عبد العزيز سنة (١٨٦٨) م خطوة أخرى هامة ، فأمر بتشكيل لجنة عليا من كبار العلماء لتقنين « الأحكام الفقهية » مستمدة مما هو الأوفق لمصالح الناس — من المذهب الحنفى وإن كان خلاف ما جاء « بظاهر الرواية » واستمر عمل اللجنة حتى سنة (١٨٧٦) م حيث صدرت « مجلة الأحكام العدلية » وصدر الأمر السلطانى بالعمل بها فى جميع أنحاء الدولة فى شعبان من تلك السنة (١٢٩٣) هـ ، وهى الفترة التى بدأت فيها خلافة السلطان « عبد الحميد » .

١٥ ــ رد فعل الدول النصرانية :

لقد أسرت الدول النصرانية ذلك فى نفسها وقررت أن يكون ردها على خطوات الدولة العثمانية بأنها دولة الخلافة ــ بعد أن أطمأنت إلى أن الأجواء مساعدة لها على ذلك ، وعبر مؤامرات طويلة تكاتفت فيها العمالة والخيانة والانحراف وشيخوخة الدولة وضعفها عن مواجهة كل تلك التحديات استطاع « مصطفى كمال » صنيعة اليهودية والماسونية والصليبية بكل أحقادها : أن يحصل على إعلان من الجمعية الوطنية بـ « إلغاء السلطنة » وانتخابه رئيسا للجمعية الوطنية وذلك فى (٢٩ / ١٠ / ١٩٢٣) م .

وفى (٣ / ٣ / ١٩٢٤) م قررت الجمعية الوطنية « إلغاء الخلافة » وفى الجلسة ــ نفسها ــ ألغت وزارتى الشريعة والأوقاف .

١٦ ــ الديانة القومية العربية :

فيما تقدم استعرضنا ــ بإيجاز شديد ــ ما أثمره سقوط « الحاجز النفسى » بين المسلمين والكفار ــ على اختلافهم ــ فى حاضرة « السلطنة » وقاعدة « الدولة العثمانية » من ثمار مدمرة حولتها إلى رجل مريض مهيأ للسقوط .

ولم تكن محاولات الكفار التخريبية قاصرة على قاعدة الدولة ــ وحدها ــ بل : استهدفت كل الاقاليم الإسلامية ليكون التدمير شاملا يستعصى على العلاج . فماذا فعلوا فى الأقاليم الأخرى ؟؟

١٧ ــ القومية العربية :

يجمع المؤرخون على أن الفترة التى تفشت فيها المشاعر القومية ــ مختلطة بدخان الاحقاد ــ ونتن التعصب : هى نفس الفترة التى بدأت فيها « مدارس التنصير بالانتشار فى المناطق العربية الإسلامية تحت ستار خدمة الأقليات النصرانية وتعليم الآداب العربية ، ولا ينبغى الالتفات إلى الزعم القائل : بأن هذه الفكرة قد بدأت بالظهور فى العصر الأموى ، فإنه ــ وإن كانت قد ظهرت بعض الانحرافات السياسية ــ فى ذلك العهد ــ عن الإسلام واستفيد فيها من بعض التناقضات القبلية ، إلا أن ما ظهر لا يمكن تفسيره بأنه تنحية لرابطة

« الأخوة الإسلامية » لإحلال جاهلية قومية عنصرية علمانية ضيقة منتنة محلها ، فإن هذا اللون ــ من التفكير لم يظهر بين المسلمين إلا بعد ظهور عصر القوميات فى أوربا .

وحين يشير بعض دهاقنة الفكر القومى إلى هذا : مثال ساطع الحصرى ، وميشيل عفلق (١) فإنهم يريدون بذلك تحقيق مزيد من التضليل والتدليس على المسلمين لئلا يفتحوا أعينهم على تلك الخديعة القاتلة (القومية) التى حولتهم إلى تلامـذة عميان لمجموعة من المبشرين والجواسيس أدخلت إلى عقولهم وقلوبهم كل ضروب الإلحاد والضلال والانحراف وجعلتهم يسمون الكفر البواح « رسالة خالدة » يقاتلون تحت ظلها البغيض إخوانهم ، ويخربون تحت شعاراتها الزائفة بيوتهم .

إن نحلة « القومية العربية » ثمرة خبيثة من ثمار النشاط التنصيرى ــ الذى مارسته بعثات « التجسس والتنصير » فى بلاد الشام منذ مطلع القرن السابع عشر الميلادى .

وقد بدأت ثمار جهود تلك البعثات تظهر فى أوائل القرن التاسع عشر الميلادى فى ظل واجهات أدبية وتعليمية فقد أنشئت « جمعية أدبية » قليلة الأعضاء فى بيروت تحت الرعاية الأمريكية(٢) . انبثقت عنها ــ فيما بعد ــ أخطر مدرسة للفكر المعادى للإسلام ــ من النصارى ، والمغرر بهم من أبناء المسلمين الذين نشروا كل ضروب الفوضى والفرقة والاضطراب فى هذه المنطقة من العالم الإسلامى ــ تحت الشعارات القومية البراقة ، تلك هى « الجامعة الأمريكية » فى بيروت .

وأخطر الفترات التى ازدهرت فيها هذه الجهود الخبيثة ــ الفترة التى استولى فيها « إبراهيم باشا » على معظم بلاد الشام ، وأعلن سنة (١٨٣٣) م إلغاء جميع

---

(١) يراجع للاطلاع على ذلك كتاب الحصرى « أبحاث مختارة من القومية العربية » وكتاب « فى سبيل البعث » لميشيل عفلق .

(٢) انظر « نشوء القومية العربية » صفحة ٧١

الإجراءات والأنظمة القائمة على التفريق بين المسلمين ، وأصحاب الأديان الأخرى — من الأقليات التى تعيش بينهم — فإن إبراهيم باشا أراد أن يكسب عواطف الأوربيين لأسرته ، وتأييدهم لسياسة والده « محمد على » فألغى جميع الفروق التى كانت بين المسلمين وسواهم ، وأعلن التسوية التامة بين الجميع وبذلك كسرت جميع الحواجز الباقية ، والتدابير الواقية من خطر البعثات التنصيرية الغربية .

يقول جورج انطونيوس : « ... وقد بلغت العوائق — التى اعترضت طريق البعثات التبشيرية الأجنبية — قبل الفتح المصرى (أى حملة إبراهيم باشا) لبلاد الشام مبلغا إن لم يعطل جهودها تعطيلا كاملا — فقد حصرها فى أضيق نطاق . فلما جاء إبراهيم أحدثت سياسته فى الحكم كثيرا من التغييرات ، وفتح المجال بذلك أمام البعثات التبشيرية الأجنبية ، فتقاطر المبشرون على بيروت ومنها انطلقوا إلى جميع أنحاء الشام ، وكانت سنة (١٨٣٤) م سنة تحول ، ففيها عاد اليسوعيون ووصل وافدون جدد من الأمريكان لينضموا إلى الفئة القليلة التى سبقتهم .. » .

١٨ — اتخاذ التعليم ستارا :

لقد أدرك هؤلاء أن أفضل غطاء لكل تلك المحاولات التخريبية ، وأقوى وسيلة لتنفيذها : هو التعليم .

ولذلك انكب المبشرون الأمريكان « إيلى سميث وزملاؤه » على تعلم اللغة العربية ، ثم أسسوا مطبعة خاصة بهم ، نقلوها من مالطة إلى بيروت كما استعانوا باثنين من كبار أدباء العربية النصارى فى لبنان ، هما : نصيف اليازجى وبطرس البستانى ، فعهدوا إليهما بتأليف كتب مدرسية مختصرة فى شتى الموضوعات إضافة إلى تلك الكتب التى كان يكتبها القساوسة والرهبان — الذين تعلموا العربية وأجادوها : وبذلك استطاعوا حل مشكلة الطبع والتأليف .

أما المعلمون المؤهلون لتدريس هذه المواد — فقد تمكنوا من إيجادهم بتحويل « المدرسة العالية » فى « عبية » بجبل لبنان إلى « كلية لإعداد المعلمين » .

وما أن دخلت سنة (١٨٦٠) م حتى كان لديهم ثلاث وثلاثون مدرسة ، فيها ما لايقل عن ألف تلميذ معظمهم من النصارى ، وبعضهم — من أبناء الأسر المسلمة ذات النفوذ ، ومن بين طلاب هذه المدارس مجموعة من الفتيات ، تقارب (٢٠ ٪) من إجمالى عدد الطلاب . وفى سنة (١٨٦٦) م توجت تلك المجموعة — من المبشرين الأمريكان — جهودها تلك بإنشاء « الكلية البروتستانية » فى بيروت .

ولقد بلغ التنافس فى إنشاء المدارس التنصيرية بين « البعثات البروتستانية » و « البعثات الكاثوليكية » مبلغا كبيرا ، فسرعان ما انتشرت مدارس التنصير لجميع المراحل ، ومنها « المراحل العالية » . وكانت المواد والموضوعات التى تدرس فيها تختار بعناية فائقة لتحقق الأهداف البعيدة لبعثات التنصير ، والحكومات النصرانية — التى وراءها . ونظرة واحدة فى تلك المناهج تجعلنا على يقين من أن الجيل الذى يتخرج فى هذه المدارس لن تكون علاقته بدينه وعقيدته ، وسيرة سلفه الصالح إلا علاقة انتساب فقط ، يحتفظ بالاسم ويتنكر للمحتوى ، ويتنصل منه .

أما الحب والإعجاب والسلوك ، ومناهج الحياة — فإنه يستلهمها من أساتذته ومربيه — الذين وجهوا فؤاده ومشاعره نحو أقوام غبروا واندثروا من الذين سخط الله عليهم : كالفراعنة والبابليين والآشوريين والفنيقيين وغيرهم ، لأن هؤلاء — فى نظرهم — أجدادهم ، ومصادر فخرهم بما بنوا من حضارات مادية بائدة .

ولقد آتى هذا التعليم المنحرف أسوأ النتائج فى حياة هذه الأمة ، فقد خرَّج جيلا مصبوغا بثقافة أعدائه وأفكارهم ومعتقداتهم وتصوراتهم ومواقفهم .

ولم يعد هؤلاء الذين تخرجوا على أيدى أولئك المبشرين ، قادرين على الرجوع إلى الإسلام ، فى أى أمر من الأمور ، بل إنهم أنفوا واشمأزوا حتى من الانتساب الإسمى إلى الإسلام ، فاختاروا لأحزابهم وفئاتهم ما شاءوا من أسماء زينها لهم شياطينهم ومضلوهم ، بعد أن خلعوا ربقة الإسلام من أعناقهم ، وقطعوا سائر

الوشائج بينهم وبين سلفهم ومنها التسمية بـ « المسلمين » التى سمانا الله — تعالى — بها : ﴿ **هو سماكم المسلمين من قبل وفى هذا** ﴾ (١)

كل ذلك قد تم تحت شعارات « التسامح الدينى » و « نبذ التعصب الدينى » وما أشبه ذلك .

١٩ — إنشاء الجمعيات والاحزاب المتصلة بالاجنبى :

لقد كان المقصود بشعار « التسامح » هدم حاجز الحذر من الاتصال بالأجنبى ، والتحفظ منه ، تمهيدا للانفتاح عليه ، والتعاون معه . ولم تكن تهمة التعصب تنتفى عن مسلم ، وما كان أحد — من المسلمين — ينال شرف الاتصاف « بالتسامح » إلا إذا تهاون فى أمور دينه ، وفترت علاقته بإخوانه المسلمين ، وقويت مع أعداء الله ، وارتضى الانضمام إلى تلك الجمعيات العميلة ، والأحزاب الدخيلة ، أو تعاون معها ، أو سهل للقائمين عليها — من الدخلاء — مهماتهم ، أو سكت عن جرائمهم ، وأهدافهم الخبيثة ، وإلا فهو رجعى متعصب ، وسلفى متزمت ، ولم يسلم من الاتصاف « بالتزمت » والرجعية والانغلاق « مسلم يعتبر التعاون مع الأجنبى ضد مصلحة الأمة الإسلامية « خيانة عظمى » لله ولرسوله وللمؤمنين يستحق فاعلها الخزى والعار فى الدنيا ، والعذاب والنار فى الآخرة ، فنشأ نتيجة لذلك شعور بالرهبة والخوف لدى الكثيرين من التصدى لهذه المؤامرات والمحاولات التخريبية . وبذلك انفتحت الأبواب أمام إنشاء الجمعيات العميلة المخربة وتأسيسها .

يقول فارس نمر باشا : « ... فالعروبة كشعار كان فى وسعها أن تثير فى نفوس العرب شعورا بالقومية ، وعلى هذا الأساس اقتنع الأعضاء المسيحيون فى الجمعية الثورية السرية : أن السبيل الوحيد للمساواة بينهم ، وبين المسلمين — هو تأليف جبهة عربية موحدة ، تقوم على فكرة العروبة وتستطيع أن تقف فى وجه الأتراك .

(١) الآية (٧٨) من سورة الحج .

ولجأ أولئك الأعضاء المسيحيون إلى خطة أخرى ــ هى : إدخال بعض الوجهاء المسلمين فى المحافل الماسونية فى بيروت .. وكانوا يأملون أن يستميلوا المسلمين ــ بعد أن يكونوا قد انضموا إلى عضوية المحافل الماسونية للانتماء إلى الجمعيات السرية ــ التى كانت تضم فى بادىء الأمر حوالى سبعين عضوا » . اهـ .

٢٠ ــ التسلسل التاريخى لظهور تلك الجمعيات :

ففى شهر يناير من سنة (١٨٤٧) م أنشئت « جمعية الآداب والعلوم » أنشأها مجموعة من النصارى الشاميين فى مقدمتهم « اليازجى وبطرس البستانى » وأسهم فى تأسيسها من النصارى الأجانب الأمريكان « ايلى سميث وكوفيلوس فان دايك » ومن النصارى الانجليز الكولونيل « تشرشل » واستمرت هذه الجمعية تعمل تحت هذا الستار سنوات عديدة .

وفى سنة (١٨٥٠) م أسس الآباء اليسوعيون « الجمعية الشرقية » .

وحين رأى القائمون على شئون « الاستعمار والتبشير » ما أصاب الجمعيتين من إخفاق نتيجة وجود العنصر الأجنبى بشكل ظاهر فيهما قرروا تأسيس جمعية ثالثة على أنقاض الجمعيتين المذكورتين ففى سنة (١٨٥٧) م أسسوا « الجمعية العلمية السورية » وجعلوا جميع الأسماء المعلنة للمؤسسين للجمعيه من أبناء البلاد ، ولم يقتصروا هذه المرة على النصارى ، بل ضموا إليهم مجموعة من جملة الأسماء الإسلامية ، والدروز ــ من تلامذة مدارس التنصير الذين تخرجوا فيها ، فظهر من بين أسماء قادة هذه الجمعية : « محمد أرسلان » من الدروز « حسين بيهم » من المسلمين إضافة إلى ذرية أبناء قادة الجمعيتين الفاشلتين « إبراهيم اليازجى » ابن « ناصيف » وأحد أبناء « بطرس البستانى »

وظهور الأسماء الإسلامية والدرزية فيها سهل على قادة البعثات التنصيرية من الأمريكان والإنجليز انتزاع اعتراف من « الحكومة التركية » بهذه الجمعية ، وبذلك

انفتحت جميع الأبواب السرية والعلنية أمام نشاطها المشبوه ، وكثر المنتسبون إليها — من رجالات العرب — داخل بلاد الشام وخارجها ، ومن ديانات ومذاهب مختلفة وكل ذلك تم تحت شعارات « التسامح ، والوحدة الوطنية ، وإحياء التراث القومى العربى » وهكذا وجدت البؤرة المناسبة لتوليد حركة سياسية ذات صبغة قومية عنصرية عبر عنها إبراهيم ناصيف اليازجى بكثير من قصائده ، ومن أبرزها بائيته — التى امتلأت بتحريض العرب على الترك والتحريش بينهم وقد جاء فيها قوله :

تنبهوا واستفيقوا أيها العرب
فقد طمى الخطب حتى غاصت الركب

الله أكبر ما هذا المنام فقد
شكاكم المهد واشتاقتكم الترب

أقداركم فى عيون الترك نازلة
وحقكم بين أيدى الترب مغتصب

فيالقومى وما قومى سوى عرب
ولن يضيع فيكم ذلك النسب

سنطلبن بحد السيف مأربنا
ولن يخيب لنا فى جنبه الأرب

ونتركن علوج الترك تندب ما
قد قدمته أياديها وتنتحب

وغير ذلك من الأبيات المشحونة بالدعوة المنتنة . وهكذا بدت العصبية الهوجاء والقومية والشعوبية المنتنة تفشو وتنتشر انتشار النار فى الهشيم لتكتسح عرى رابطة « الأخوة الإسلامية » وتحل محل « روابط التوحيد ووشائج الإيمان »

٢١ — الضربة القاضية :

إذا طوينا صفحات الفترة التاريخية — التى تلت الجهود المشار إليها ،

باعتبارها لا تعدو أن تكون فترة تفاعل للجهود المذكورة آنفا ، وانتقلنا عنها إلى تلك السنوات الحاسمة ـــ التى وجهت فيها الضربة القاضية إلى الأمة الإسلامية ـــ نجد أن الحركة القومية التركية بمساعدة أحفاد « يهود الدونمة » والماسون وسائر دعائم الكفر قد تمكنت من خلع السلطان « عبد الحميد الثانى » سنة ١٩٠٩ م واستبدت ـــ بعده ـــ بالسلطة وأطلقت أيديها لتدمير كل ما بقى من جذور لرابطة « الأخوة الإسلامية » ، فاتبعت ما عرف بسياسة « التتريك » أى : دمج الشعوب المسلمة المنضوية تحت راية الدولة العثمانية وصهرها ، وإذابة كل خصائصها القومية ، وقد كان ذلك جزءا من مخطط الأعداء المدروس لإنضاج « الاتجاهات القومية » بطريق إثارة ردود فعل لدى الشعوب غير التركية تؤدى إلى إحياء « فكرها القومى » ونعراتها العنصرية . وفى مقدمة تلك الشعوب التى أحدثت هذه السياسة ردود فعل مباشرة عندها ـــ الشعب العربى ـــ الذى ساءه تحدى رجال « تركيا الفتاة » له فى لغته ـــ لغة القرآن ـــ ومنع التخاطب بها فى جميع المؤسسات الحكومية ، ومحاولتهم ترجمة القرآن العظيم إلى التركية ، فسهلت هذه الإساءة المقصودة من رجال « الاتحاد والترق » على أعداء الأمة مهمتهم ، وأصبحت الدعوات العنصرية واللادينية تلاقى رواجا وآذانا مصغية ، فأقبل الكثيرون من شباب العرب على الانضمام إلى تلك الجمعيات العميلة ـــ التى ذكرناها ، وقام بعضهم بتأسيس « جمعيات وأحزاب » جديدة قومية بإيحاء وإيعاز من نفس أولئك الذين شكلوا الجمعيات القديمة الممهدة لهذه الأحزاب الجديدة : وهكذا فشت أحزاب الدعوة المنتنة فى معظم الحواضر الإسلامية . وتهيأت الأجواء كلها لحدوث التصادم الممزق ـــ بين جناحى دولة « آل عثمان » : الأتراك والعرب ، بعد أن كان ذلك قد وقع بين الأتراك والفرس منذ زمن بعيد ولمرات عديدة ..

لقد اختير الحكام الأتراك الاتحاديون للأقاليم العربية ـــ فى الغالب ـــ من ذوى الأصول التى ترجع إلى يهود الدونمة ، أو من الأعضاء الفعالين فى « الجمعيات الماسونية » أو « الطورانية » والمتعصبين لها ، ولذلك كانوا يعملون

على الدوام على إهانة العرب ، والاصطدام بهم ، وإثارة مشاعرهم وتذكيرهم بالفوارق العنصرية ، لتحريك روح التمرد والانفصال فى نفوسهم ، وصادفت هذه المحاولات تهيؤا واستعدادا نضج عبر تلك الجهود التى ذكرنا بعضها .

٢٢ ــ ثورة ٩ شعبان :

.وهكذا وجدت الدول الأجنبية المتربصة فرصتها لتوجيه الضربة القاضية إلى وحدة هذه الأمة ــ بعد أن مهدت لها بكل تلك السبل التى ذكرناها : فعملت بريطانيا على استمالة الشريف حسين ، وأثارت فى نفسه كامن المطامع فى الحكم ، ووعدته بأن تضع قواتها تحت تصرفه لتحقيق هذه المطامع ، وجازت عليه الحيلة ، وسقط فى شراك الخداع ، وبدأ التخطيط والتنسيق بينه وبين أولاده ، وبين رجال بريطانيا فى مصر : السكرتير الشرقى لدار الاعتماد البريطانية المستر « رونالد ستورز » ومدير المخابرات السير « هنرى مكماهون » الذى عين فى القاهرة لهذا الغرض سنة (١٩١٥) م والحاكم العام للسودان « السير رينجالدونجت » .

والذى يوضح مدى ذلك التنسيق بين الشريف حسين وبين الإنكليز تلك الرسائل الكثيرة التى تبادلها حسين ــ شريف مكة ــ مع كتشنر ، ثم مع خليفته « مكماهون » ومن هذه الرسائل رسالة الشريف حسين إلى مكماهون فى « ٢ / ٩ / ١٣٣٣ » هـ « ١٤ / ٧ / ١٩١٥ » م وفيها طلب من الحكومة أن توافقه على مطالبه وأن تعترف له بها ، وهذه المطالب هى :

١ ــ أن تُعِينَهُ بريطانيا على سلخ البلاد العربية عن تركيا وإعلان استقلالها ، وإعلان نفسه خليفة على المسلمين .

٢ ــ وتعهد مقابل ذلك أن يترك لبريطانيا « عدن » فلا يدخلها ضمن دولته ..

٣ ــ وأن تكون لبريطانيا الأفضلية فى كل المشاريع الاقتصادية فى البلاد العربية .

٤ ــ وأن تتعاون الحكومتان ضد كل قوة تهاجم أحد الفريقين بالقوة العسكرية برا وبحرا وجوا .

ورد مكماهون على الشريف برسالة تحمل تاريخ (١٩ / ١٠ / ١٣٣٣) هـ (٣٠ / ٨ / ١٩١٥) م جاء فيها :

« إلى السيد الحسيب النسيب ، سلالة الأشراف وتاج الفخار ، وفرع الشجرة المحمدية ، والدوحة القرشية الأحمدية ، صاحب المقام الرفيع ، والمكانة السامية ــ السيد بن السيد ، والشريف بن الشريف ، السيد الجليل المبجل ، دولتلو ــ: الشريف حسين سيد الجميع ، أمير مكة المكرمة ، قبلة العالمين ومحط رجال الدين الطائعين ، عمت بركاته أجمعين وبعد هذه الديباجة المتقنة الصنع ــ يعلن مكماهون الشريف (سيد الجميع) .. بأن بريطانيا العظمى ترحب أحر الترحيب برد الخلافة إلى عربى صميم ــ من فروع تلك الدوحة النبوية المباركة .. »

واستمرت المراسلات والاتصالات بين الشريف ومن لف حوله من الدخلاء والأغبياء ــ من أولئك الذين باعوا للشيطان أنفسهم وهم يشعرون ، وأولئك الذين اجتالتهم الشياطين وهم لايشعرون ، وبين الإنكليز حتى نضجت « الفتنة الكبرى » وأصبحت جاهزة للاشتعال ، وتسلم القادة الإنكليز أمثال « لورانس » زمام قيادة القوى العربية المسلمة ..

وفى صبيحة يوم من أيام الشؤم فى حياة هذه الأمة ، وهو يوم (٩ شعبان من سنة ١٣٣٤)هـ الموافق (٥ / ٦ / ١٩١٦) م أطلق الشريف حسين الإطلاقة الأولى ــ معلنا قيام ما سمى بـ « الثورة العربية الكبرى » فكانت رصاصته تلك رصاصة الخلاص من حياة رابطة « الأخوة الإسلامية » وإعلانا صارخا لإلغائها وإحلال الروابط ــ التى اختارها الكفار ــ من « القومية ، ثم الأقليمية ، ثم الحزبية » محلها ففى تلك الفتنة حمل المسلمون العرب بقيادة الضباط الإنكليز على إخوانهم المسلمين الأتراك ــ الذين كانوا يقاتلون مع النصارى ــ أيضا ــ من الألمان وحلفائهم : فكانت تلك « الثورة » ــ الفتنة ــ بمثابة إعلان مشترك من القوميين العرب والأتراك ــ معا ــ بإلغاء « رابطة الأخوة الإسلامية » وتحطيم وشائج العقيدة ، والقضاء على الإسلام بوصفه قوة سياسية فى العالم كان لها أعمق الآثار فى حماية الضعفاء ، وإحقاق الحق ، والدفاع عن المظلومين لقرون عديدة .

٢٣ — وماذا بعد ؟

وبعد أن انفرط العقد وتمزقت الأمة ، تتالت المصائب والويلات على الشعوب المسلمة كافة ، فلم تتحد تركيا ولم تترك ، بل أصبحت أرضا محتلة وطئتها أقدام تحالف الغزاة ، والعرب لم يتوحدوا فى ظل دولة « خلافة عربية » .. كما كان الشريف يؤمل ، بل تحولوا إلى أقاليم اقتسمها الإنكليز والفرنسيون فيما بينهم — ونصبوا على بعضها نواطير من عملائهم ، وحدث مثل ذلك لسائر المسلمين ، وفلسطين منحت لليهود بوعد « بلفور » بعد ذلك بشهور ، وكل ذلك ما كان ليحصل لو أن « الأخوة الإسلامية » بقيت رابطة بين المسلمين ، ودولة الخلافة حاكمة لهم .

والذى قضى على « رابطة الإسلام » و « دولة الخلافة » المؤامرات المتقدمة ، وما كان لها أن تنجح لولا انهيار « الحاجز النفسى » بين المسلمين وغيرهم .

إن سقوط « الحاجز النفسى » بين المسلمين وأعداء الإسلام هو الذى حول فلسطين من أرض إسلامية ، وقبلة أولى للمسلمين إلى وطن قومى لليهود .

وجعل من جبال لبنان الأشم « وطنا قوميا » للنصارى وجعل عاصمتى الخلافتين الأموية والعباسية أهم قاعدتين للنفوذ النصرانى فى المنطقة ، منهما ينتشر الفكر الإلحادى ، والكفر البواح بكل أشكاله وبجهود حكامهما يكسب الكفر ما يريد .

إن سقوط الحاجز النفسى بين المسلمين وأعدائهم هو الذى سهل على مجموعة من أولئك الذين تربوا فى مواخير المخابرات الأمريكية والفرنسية والبريطانية تسلم زمام قيادة الشباب العربى المسلم لفترة جيلين متصلين ، ولا يزال تلامذة هؤلاء فى مراكز القيادة فى أقطار عربية وإسلامية عديدة .

كيف يستطيع امرؤ أن يسمى رجلا مثل « ميشيل عفلق » بالقائد المؤسس — من غير أن يخلع من عنقه ربقة الإسلام ، ويسقط كل « حاجز نفسى » بينه وبين الكفر ؟ .

وكيف يستطيع مسلم مؤمن أن يدع كتاب الله وسنة رسوله ويتوجه نحو

« إلياس فرج » الذى لقطته مواخير جنيف ليتلقى منه التوجيه وليطلق يده وفكره العفن فى رسم صورة الجيل المسلم القادم فى بلد من أهم بلدان المسلمين ، كيف يستطيع ذلك — إذا لم يسقط من قلبه وعقله وفكره وروحه ونفسه كل ما يذكره بالانتساب إلى الإسلام ؟ . هؤلاء الذين أفرزتهم « الفتنة الكبرى » يخلعون الحجاب عن المخدرات ، ويعلن كتّابهم ومفكروهم : بأنهم يحاربون إسرائيل لأنها دولة قامت على أساس دينى وأنهم سيحاربون كل دولة تقوم على هذا الأساس حتى لو كان ذلك الدين هو الإسلام(١)

هؤلاء الذين يقول شاعرهم :

آمنت بالبعث ربا لاشريك له
وبالعروبة دينا ماله ثان

ويقول الآخر :

البعث دينى والعروبة مذهبى

هؤلاء الذين يقتلون علماء المسلمين ، ويعدّون الانتماء الحقيقى للإسلام رجعية وجريمة تستحق الإعدام بدون محاكمة ، أو بمحاكمة صورية : هؤلاء ما كان لهم أن يصلوا إلى هذا الحد من الكفر والجحود — لو كان بين المسلمين وبين عدوهم حاجز نفسى يعرّف هؤلاء العمى على أعدائهم ، ويشير لهم إلى إخوانهم وأصدقائهم .

هؤلاء — هم الذين جعلوا الأمة — طيلة العقود الماضية — من السنين تفقد الرؤية لأنها حاولت النظر من خلال شعاراتهم فأصيبت بنوع من عمى الألوان جعلها تصدقهم حين قالوا : « الطريق إلى تل أبيب يمر بالرياض » ، وأحيانا يمرّونه على « عمان » وأحيانا يمرّونه على غيرها حسب مايوجههم أسيادهم من أعداء الأمة .

وما كان لأمتنا المسلمة أن تصل لهذا الواقع السيء الذى تتخبط فيه ، إلابعد سقوط « الحاجز النفسى » بين المسلمين وأعدائهم .

---

(١) من كتاب محمد عمارة « القومية العربية ومؤامرات أمريكا ضد وحدة العرب » الصادر فى دمشق .

٢٤ — تحذير وتنبيه :

إن هناك أقاليم مسلمة عافاها — الله — تعالى فى ماضيها من كثير من الأمراض التى ابتليت بها جاراتها — ونسأله تعالى أن يعافيها فيما يستقبل من الأيام ، ابتليت — أخيرا — بمن يعملون ليل نهار على إسقاط « الحاجز النفسى الإسلامى » الذى حماها فى الماضى من أن تسقط فى براثن الكافر المستعمر ، وأمام تلك المحاولات الكثيرة التى خطط لها اعداؤها ، شرع المخدوعون والمضللون من أبنائها فى تنفيذها — قد خطت خطوات واسعة فى سبيل اسقاط « الحاجز النفسى الإسلامى » بينها وبين أعدائها ، فهناك آلاف المبتعثين الذين يعودون بعقول وقلوب غير التى ذهبوا بها .

وهناك آلاف الخبراء والمستشارين وزوجاتهم — الذين لابد أن يتركوا بصمات واضحة فى أخلاق أبناء المجتمع وسلوكهم ، وسائر شئونهم .

وهناك السياحة إلى بلاد الكفار وغيرها ، وما تحدثه من تعاطف مع الكفار ، وميل إليهم وإعجاب بما لديهم ، وهناك التجارة المشتركة وآثارها والإسراف باستيراد اليد العاملة ، وما لذلك من نتائج سلبية ، فى مقدمتها دفع الحواجز النفسية بين المسلمين وأعدائهم ، وتهيئة عقولهم وقلوبهم للانفعال والتأثر بما عليه الآخرون ، ومن فتح قلبه وعقله لقوم فتحت أرضه — لا محالة — لهم ، فلعل هؤلاء ينتبهون — قبل فوات الأوان — ويعيدون النظر فى هذه السياسات ويرسمون بناء الحاجز النفسى الإسلامى فى قلوب أبنائهم لحماية ما قد يكون بقى لهم من مقومات « الشخصية الإسلامية » .

كما أن أولئك الذين اندفعوا وراء سلام زائف مع اسرائيل عليهم أن يدركوا ما معنى اصرار اسرائيل على ما أسمته ، « تطبيع العلاقات » خاصة العلاقات « الثقافية » ، وأن يفهموا ما معنى تحريض إسرائيل الدائم على العناصر الإسلامية فى مصر .. وغيرها . ذلك لأنهم بما لديهم من رؤيا إسلامية واضحة تجعلهم قادرين على الدوام على التمييز بين العدو والصديق — يكونون عنصرا يستعصى على

« التطبيع » و « التطويع » فهل ينتبه النائمون ؟ نطمع طمعا ، ونسأل الله — تعالى — أن يحدث ذلك ، فهو — وحده — القادر عليه بعد أن وصل الحال إلى ما وصل إليه .

٢٥ — سبيل الخلاص ..

إن التخلص من الواقع السيء — الذى تعيشه أمتنا المسلمة لا يمكن أن يتم إلا بيقظة إسلامية تعرف معالم الإسلام فتنتهى إليها ، وتعرف حدوده فتقف عندها ، يقظة تجعل المسلمين يدركون — تمامه ما هو الإسلام ، وما حقيقته ، وما الفارق بينه وبين الكفر والنفاق والالحاد ، يقظة تحيى فى عقول المسلمين وقلوبهم المفاهيم الحقة للإسلام وحقائقه ومعانيه السامية التى غمرتها وطغت عليها مفاهيم الجاهلية الجهلاء ، والضلالة العمياء ، يقظة إسلامية سليمة ترسى قاعدة الحركة الفكرية ، والتنظيم الاجتماعى الإسلامى — على مستوى الفرد والجماعة ، وعلى مستوى التثقيف والتربية ، وعلى أساس من الفكر والاجتهاد الإسلاميين الناضجين بعد أن طرح التصورات والقيم الإسلامية فى كلياتها وعلاقاتها ، وتأثيراتها على السلوك و التنظيم بما يحقق غايات الإسلام ومقاصده فى إنشاء « الأمة الوسط » .

إنه مالم يخرج المسلمون من هذه « الأزمة الفكرية » التى يتخبطون بها — فإنه لا أمل فى خلاص ، فإن هذه « الأزمة الفكرية » قد جعلت المسلم لا يميز بين الكفر والإيمان ، ولا بين الضلالة والهدى ، ولا بين الرشد والغى ، ولا بين العدو والصديق ، وخلطت كل شيء أمام ناظريه حتى لم يعد قادرا على التمييز بين الأشياء . إنها الفتنة التى تذر الحليم حيرانا ، ولا مخرج منها غير كتاب الله ، فيه نبأ من قبلنا ، وخبر ما بعدنا ، وحكم ما بيننا ، وهو الفصل ، ليس بالهزل ، من تركه من جبار قصمه الله ، ومن أعرض عنه ، وابتغى الهدى فى غيره أضله الله ، وهو حبل الله المتين ، والذكر الحكيم ، والصراط المستقيم ، لا تزيغ به الأهواء ، ولا تلتبس به الألسنة ، ولا يشبع منه العلماء ، ولا يخلق على كثرة الرد ، ولا تنقضى عجائبه ، هو الذى لم تنته الجن إذ سمعته حتى قالوا : ﴿ **إنا سمعنا قرآنا عجبا**

يهدى إلى الرشد فآمنا به ﴾ . من قال به صدق ، ومن عمل به أجر ومن حكم به عدل ، ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم (١)

* * *

---

١) أنظر الترمذى الحديث (٨ ــ ٢٩) فقد أورده وقال : هذا حديث لانعرفه إلا من هذا الوجه وإسناده مجهول وفى الحديث مقال ، ولذلك أوردناه من غير أن نشير إلى أنه حديث وانظر سنن الدارمى (٢ / ٤٣٥) .

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى أرسل نبينا محمدا ﷺ رحمة للعالمين ، وجعل أمته خير أمة أخرجت للناس ، يأمرون بالمعروف وينهون عن منكر الضالين — صلى الله عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين ، وأصحابه دعاة (١) طريق الحق والدين .

وبعد ..

فهذه رسالة جمعتها من التفاسير والأخبار والفروع والآثار (٢) ، تبين ورود النهى عن « الاستعانة والاستنصار — فى أمور المسلمين — بأهل الذمة والكفار (٣) . ووجوب البراءة منهم ، والاجتناب عن الفجار (٤) . لاسيما (٥) اليهود فإنهم أشد الناس عداوة للذين آمنوا (٦) ، بل يجب

---

(١) فى الأصل « بدأت » وهو تحريف من الناسخ والصواب ماأثبتناه أو نحوه .

(٢) جمع « أثر » والأثر والخبر والحديث بمعنى وهو : ما جاء عن النبى ﷺ أو ما أضيف إليه قولا أو فعلا أو تقريرا أو صفة ، وفرق بعضهم : فسمى المرفوع خبرا وحديثا ، والموقوف أثرا — وقيل : الخبر ما جاء عن غير رسول الله ﷺ مطلقا والأثر : ماجاء عن الصحابى خاصة . فراجع نزهة النظر (١٨ — ١٩) وكليات أبى البقاء (١٥٢) وقواعد التحديث ٦١ — ٦٤ .

(٣) أهل الذمة هم الكفار من أهل الكتاب أو من يسن سنتهم من الذين يرتبطون مع الدولة الإسلامية بعقد ذمة ، فتقوم الدولة الإسلامية بحمايتهم وتأمينهم ، والدفاع عنهم لقاء تسليمهم بسلطان الدولة الإسلامية وخضوعهم لأحكامها ودفع الجزية لها . والكفار جمع كافر ، من الكفر ، وهو الستر ، فالكافر قد ستر الحق الذى تدعوه فطرته إلى الإيمان به ويرشد إليه كل ما فى الوجود ، من وجود الخالق ، ووحدانيته وجحد ذلك كله ، راجع اللسان والتاج

(٤) الفجار : جمع فاجر من الفجور ، وهو الفسق والزنا ويقال للحالف « فجر » إذا حلف كاذبا

(٥) لا سيما « سىّ » بمنزلة « مثل » وزنا ومعنى وعينه فى الأصل واو ، وقد أخطأ من يستعمله بغير صيغة « ولا سيما » راجع مغنى اللبيب (١ / ١١٣ — ١١٤) والمصباح (٤٠٨ — ٤١٠) .

(٦) اقتباس من الآية (٨٢) من سورة المائدة

عليهم ــ فى دينهم ــ[1] إيصال الشر والإضرار (إلى غيرهم) [2] ، وحسبنا الله ونعم الوكيل ، وإليه المرجع والمصير و (هو) [3] نعم المولى ونعم النصير .

النهى عن تولى الكافرين .

قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ **لايتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله فى شىء إلا أن تتقوا منهم تقاة ويحذركم الله نفسه وإلى الله المصير** ﴾[4].

قال أبو بكر ([5]) الجصاص ــ فى كتابه المسمى بـ « أحكام القرآن » : « فيه نهى عن اتخاذ الكافرين أولياء ، لأنه جزم الفعل ، فهو ــ إذن ــ نهى ([6]) وليس بخبر .

« قال ابن عباس ([7]) ــ رضى الله عنهما ــ نهى الله ــ تعالى ــ المؤمنين

---

(١) والعهد القديم والتلمود والبروتوكولات وتصرفات الدولة اليهودية منذ قيامها دليل على ذلك وقد شهد القرآن على هذا فيهم فى مواضع كثيرة من آياته .

(٢) سقطت من الأصل

(٣) لم ترد الزيادة فى الأصل .

(٤) الآية (٢٨) من سورة آل عمران .

(٥) هو : أحمد بن على الرازى ، والجصاص لقب له من النسبة إلى العمل بالجص وتبييض الجدران توفى فى ذى الحجة سنة ٣٧٠ هـ له تصانيف كثيرة منها المطبوع ومنها مايزال مخطوطا فمن تصانيفه المطبوعة كتابه المذكور « أحكام القرآن » له ترجمة فى تاريخ بغداد (٤ / ٣١٤ ــ ٣١٥) وتاج التراجم (٦) والفوائد البهية (٢٧ ــ ٢٨) والعبر (٢ / ٣٥٤) والبداية (١١ / ٢٩٧) والنجوم (٤ / ١٣٨ ــ ١٣٩) ، والجواهر المضيئة :(١ / ٢٢٠ ــ ٢٢٤) .

(٦) فالذال من « يتخذ » مجزومة « بلا » الناهية وعلامة الجزم السكون ، لكنها كسرت لالتقاء الساكنين ، قال الزجاج : ولو رفع على الخبر جاز ولكنه لم يقرأ . والخبر والطلب يقام كل منهما مقام الاخر . وانظر تفسير النيسابورى بهامش الطبرى(٣ / ١٧٧) ، وتفسير الطبرى (٣ / ١٥٢) وابن كثير (١ / ٣٥٧)

(٧) هو حبر الأمة أبو العباس عبد الله بن عباس عم رسول الله ــ ترجمت له معظم كتب السيرة والتراجم منها طبقات ابن سعد : (٢ / ٣٦٥ ــ ٣٧٢) ط دار بيروت .

والشيرازى : (٤٨ ــ ٤٩) ط دار الرائد بيروت وتاريخ بغداد (١ / ١٧٣ ــ ١٧٥) وقد صح أن وفاته ــ رضى الله عنه ــ كانت بالطائف سنة ٦٨ هـ ، والإصابة (٢ / ٣٣٠ ــ ٣٥٧) الترجمة رقم=

بهذه الآية أن يلاطفوا الكفار (١) .

قال الجصاص (٢) : ونظيرها من الآية قوله تعالى ﴿ لاتتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا ﴾ (٣) وقوله ﴿ لاتجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم ﴾ (٤) الآية .

وقوله تعالى : ﴿ ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار .... ﴾ (٥) ، وقوله : ﴿ فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا ﴾ (٦) .

وقوله : « وأعرض عن الجاهلين » (٧)

وقوله : ﴿ يأأيها النبى جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ﴾ (٨) .

وقوله : ﴿ فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين ﴾ (٩) وقوله : ﴿ يأأيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة ﴾ (١٠) .

وقوله : ﴿ ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم زهرة الحياة

=(٤٧٨١) ، وبهامشها الاستيعاب : (٢ / ٣٥٠ ــ ٣٥٧) : والتذكرة (١ / ٤٠) وتهذيب التهذيب (٥ / ٢٧٦ ــ ٢٧٩) .

(١) زيادة متعينة وردت فى المخطوط والطبرى وسقطت من أحكام القرآن للجصاص ، وتتمة أثر ابن عباس هذا كما فى تفسير الطبرى (٣ / ١٥٢) . أو يتخذونهم وليجة من دون المؤمنين إلا أن يكون الكفار عليهم ظاهرين ، فيظهرون لهم اللطف ويخالفونهم فى الدين وذلك قوله : إلا أن تتقوا منهم تقاة .

(٢) زيادة مناسبة لوصل الكلام .

(٣) الآية (١١٨) من سورة آل عمران .

(٤) الآية ٢٢ من سورة المجادلة .

(٥) هود (١١٣)

(٦) النجم (٢٩)

(٧) الأعراف (١٩٩)

(٨) التوبة (٧٣)

(٩) الأنعام (٦٨)

(١٠) الممتحنة (١)

الدنيا ﴾ (١)

فيه نهى ، بعد النهى عن مجالستهم وملاطفتهم والنظر إلى أموالهم وأحوالهم فى الدنيا (٢)

روى أن النبى (٣) ﷺ مر بإبل بنى المصطلق (٤) وقد عبست بأبوالها من السمن فتقنع بثوبه ومضى ، لقوله تعالى :**﴿ ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا ﴾**(٥) .

وروى عن النبى ﷺ أنه قال : « أنا برىء من كل مسلم مع مشرك » فقيل : لم يا رسول الله ؟ .

فقال : « لاترائى ناراهما » .

وقال : « أنا برىء من كل مسلم يقيم بين أظهر المشركين » (٦) .

---

(١) طه (١٣١) ، وانظر الحجر (٨٨)

(٢) أى نظرة إعجاب .

(٣) لفظ المخطوط : « عن » وما أثبتنا من أحكام القرآن .

(٤) هذا لقب جذيمة بن سعد بن عمرو بن ربيعة بن حارثة الخزاعى . انظر الفتح (٧ / ٣٠٣)
والعبس : ما ييبس على أذناب الإبل والشاه ونحوها من البول والبعر ، واحدتها عبسة كقصب وقصبة . انظر اللسان والتاج والمصباح مادة « عبس » .

(٥) طه (٣١) وانظر الاية (٨٨) من سورة الحجر ، والحديث لم أجده فيما بين يدى من كتب الحديث وقد اورده ابن كثير فى النهاية (٣ / ١٧١) ط ـــ عيسى الحلبى وفيه : « وقد عبست فى أبوالها » قال : وعداه بفى لأنه أعطاه معنى « انغمست » . كما ذكر القرطبى فى تفسيره : (١١ / ٢٦٣) ، والفخر الرازى فى التفسير الكبير (١٩ / ٢١٠) وذكره صاحب التاج وبعض اللغويين الآخرين فى مادة « عبس » .

(٦) عقد الترمذى فى سننه بابا فيما « جاء فى كراهية المقام بين أظهر المشركين » أخرج فيه حديثا عن قيس ابن أبى جازم أن رسول الله ﷺ بعث سرية إلى خثعم ، فاعتصم ناس بالسجود ، فأسرع فيهم القتل ، فبلغ ذلك النبى ﷺ فأمر لهم بنصف العقل ، وقال : « أنا برىء من كل مسلم يقيم بين أظهر المشركين » قالوا يارسول الله ولم ؟ قال : « لا ترايا ناراهما » (٥ / ٣٢٨ ـــ ٣٢٩) الحديث رقم (١٦٠٤) ورقم (١٦٠٥)

وأخرج نفس الباب عن سمرة بن جندب عن النبى ﷺ أنه قال : « لاتساكنوا المشركين ، ولا تجامعوهم فمن ساكنهم أو جامعهم فهو مثلهم » وقد أخرج حديث الترمذى الأول أبو داود ،وجعله فى « باب النهى ـ

قال الجصاص : فهذه الآيات والآثار دالة على انه ينبغى أن يعامل الكفار بالغلظة والجفوة ، دون الملاطفة والملاينة ، مالم يكن حال يخاف فيها على تلف نفسه ، أو تلف بعض أعضائه ، أو أضراراً كثيرة تلحقه فى نفسه ، فإذا خاف ذلك : جاز له إظهار الملاطفة والموالاة من غير صحة اعتقاد .

والولي (١) ينصرف على وجهين : أحدهما : من يلى أمور من ارتضى فعله بالنصرة والمعونة والحياطة ، وقد سمى لذلك المعان بالمنصور ، قال الله تعالى :

= عن قتل من اعتصم بالسجود » فانظر الحديث رقم (٢٦٤٥)

وقال شارحه الخطابى : « إنما أمر لهم بنصف العقل ، ولم يكمل لهم الدية بعد علمه بإسلامهم ، لأنهم قد أعانوا على أنفسهم بمقامهم بين ظهرانى الكفار ، فكانوا كمن هلك بجناية نفسه ، وجناية غيره فسقطت حصة جنايته من الدية .. وقوله «لاتراءى نارهما» فيه وجوه : أحدها : معناه لا يستوى حكماهما . وقال بعضهم : معناه : أن الله قد فرق بين دارى الإسلام والكفر فلا يجوز لمسلم أن يساكن الكفار فى بلادهم حتى إذا أوقدوا نارا كان منهم بحيث يراها وفيه وجه ثالث ذكره بعض أهل اللغة ، قال معناه : لايتسم المسلم بسمة المشرك ، ولا يتشبه به فى هديه وشكله ، والعرب تقول : « ما نار بعيرك » أى : ما سمته ؟ ومن هذا قولهم : « نارها نجارها » يريدون أن ميسمها يدل على كرمها وعتقها . قال الخطابى : وفيه دلالة على كراهه دخول المسلم دار الحرب للتجارة والمقام فيها أكثر من مدة أربعة أيام . فانظر حاشية (٣ / ١٠٤ ــ ١٠٥) من سنن أبى داود . وقال فى عارضة الأحوذى : (٧ــ١٠٤) «إن الله حرم ــ أولا ــ على المسلمين أن يقيموا بين أظهر المشركين بمكة ، وافترض عليهم أن يلحقوا بالنبى ﷺ بالمدينة ، فلما فتح الله ــ تعالى ــ مكة سقطت الهجرة ــ وبقى تحريم المقام بين أظهر المشركين .

وأما حديث سمرة فقد أخرجه أبو داود بلفظ « من جامع المشرك وسكن معه فإنه مثله » فانظر الحديث (٢٧٨٧) فى باب « فى الإقامة بأرض الشرك » .

(١) الولى اسم من « والاه » إذا أحبه أو نصره فيقال : « للمحب والصديق والنصير » كما يطلق على « الصاحب والقريب » كابن العم وابن الأخت .

و « الولاية » بالفتح وبالكسر النصرة . وفرق بعضهم بين « الولاية » بالفتح و « الولاية » بـ الكسر فبالفتح ذكروا : أنه يراد بها ولاية النسب والنصرة . والعتق وبالكسر الإمارة ، والخطة (المنطقة) التى يليها وال . ومن ولى أمر أحد ، فهو وليه راجع الصحاح والمصباح واللسان والتاج مادة (ولى) .

وقال الراغب : « الولاء والتوالى » أن يحصل شيئان فصاعدا حصولا ليس بينهما ماليس منهما ويستعار ذلك للقريب ــ من حيث المكان ، ومن حيث النسبة ، ومن حيث الدين ، ومن حيث الصداقة والنصرة والاعتقاد .

والولاية بالكسر وبالفتح ، حقيقته : تولى الأمر . و « الولى » و « المولى » يستعملان فى ذلك ، كل =

﴿ الله ولى الذين آمنوا ﴾ (١) يعنى أنه يتولى نصرهم ومعونتهم والمؤمنون أولياء الله ــ تعالى ــ بمعنى : أنهم معانون بنصرة الله ، قال الله تعالى : ﴿ ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ (٢) . ا هـ (٣) .

وفى « الكشاف » (٤) : نهوا أن يوالوا الكافرين لقرابة بينهم أو صداقة ــ قبل الإسلام ــ أو غير ذلك من الأسباب ــ التى يُتصادق بها ، ويتعاشر ، وقد كرر ذلك فى القرآن ﴿ ومن يتولهم منكم فإنه منهم ﴾ (٥) ﴿ لا تجد قوما يؤمنون بالله ﴾ (٦) الآية ﴿ لاتتخذوا اليهود والنصارى أولياء ﴾ (٧) والمحبة فى الله والبغض فى الله باب عظيم وأصل من أصول الإيمان ﴿ من دون

= واحد ــ منهما ــ يقال فى معنى « الفاعل » ــ أى : الموالى ، وفى معنى المفعول ــ أى الموالى . ويقال للمؤمن « ولى الله » ولم يرد مولاه . وقد يقال الله ولى المؤمنين ومولاهم ، فمن الأولى قوله تعالى: « الله ولى الذين آمنوا » [سورة البقرة : ٢٥٧ « إن وَلِيِّىَ الله الذى نزل الكتاب » الأعراف : ١٩٦ .

« ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا » (سورة محمد : ١١) ، « نعم المولى ونعم النصير » (الأنفال : ٤٠) ، « واعتصموا بالله هو مولاكم فنعم المولى ونعم النصير » (الحج : ٧٨) . انظر المفردات (٥٣٣ ــ ٥٣٥) وأحكام القرآن للجصاص : (٢ / ١٠) .

(١) سورة البقرة : (٢٥٧)

(٢) يونس : (٦٢)

(٣) أى : ما نقله عن أحكام القرآن للجصاص مراجعة (٢ / ٩ ــ ١٠) ط ــ البهية المصرية .

(٤) هو كتاب « الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل » لمؤلفه أبى القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشرى الخوارزمى المتوفى سنة (٥٣٨) هـ وهو من كبار علماء المعتزلة فى عصره ، وكتب تفسيره هذا على طريقتهم ، وله تصانيف أخرى كثيرة غيره،منها « الفائق فى غريب الحديث » و « وأساس البلاغة » و « المفصل » فى النحو وقد ألف فى علوم كثيرة متنوعة وهو حنفى فى الفروع له ترجمة فى طبقات المفسرين للداودى (٢ / ٣١٤) وطبقات السيوطى (٤١) ، والبداية (١٢ / ٢١٩) والنجوم (٥ / ٢٧٤) ، والجواهر المضيئة (٢ / ١٦٠) ، و الشذرات (٤ / ١١٨) ، والعبر (٤ / ١٠٦) واللباب (١/ ٥٠٦) وأنباه الرواة (٣ / ٢٦٥)، الميزان (٤ / ٧٨) ، ولسان الميزان (٦ / ٤) ومقدمات كتبه المطبوعة .

(٥) الآية (٥١) من سورة المائدة

(٦) الآية (٢٢) من سورة المجادلة .

(٧) الآية (٥١) من سورة المائدة .

المؤمنين ﴾ (١) يعنى أن لكم فى موالاة المؤمنين مندوحة عن موالاة الكافرين ، فلا تؤثروهم عليهم ﴿ **ومن يفعل ذلك فليس من الله فى شىء** ﴾ (٢) أى : ومن يوال الكفرة فليس من ولاية الله فى شىء يقع عليه اسم « الولاية » يعنى أنه منسلخ عن ولاية الله رأسا وهذا أمر معقول ، فإن موالاة الولى وموالاة العدو متناقضان قال الشاعر :

تولى عدوى ثم تزعـــــم أننــــــى
صديقك ليس النوك (٣) عنك بعازب

وقال القاضى (٤) : نهوا عن موالاتهم لقرابة أو صداقة جاهلية ونحوهما حتى

---

(١) + (٢) الآية (٢٨) من سورة آل عمران .

يستطيع الذين يتساءلون اليوم — لم لم ينتصر العرب أو المسلمون فى كل المواقع التى خاضوها ، فى سائر المجالات ؟ يستطيع هؤلاء أن يجدوا فى هذا : الجواب الشافى فلقد تولوا غير الله ، واعتمدوا على أعدائه ، فأوكلهم الله — تعالى — إليهم فخذلوهم . هذا : والحب فى الله والبغض فى الله عبادة من أهم العبادات وقربة من أفضل القربات جاء بذلك القرآن العظيم والسنة النبوية المطهرة . وراجع فى معرفة فضل ذلك نحو إحياء علوم الدين . (كتاب آداب الألفة والأخوة والصحبة والمعاشرة مع أصناف الخلق) وهو الكتاب الخامس من ربع العادات

(٣) ورد البيت فى الكشاف وشواق بلفظ « تود » بدلا من « تولى » وقد أورد فى شواهد الكشاف بيتا ثانيا بعده وهو :

فليس أخى من ودنى رأى عينــه ولكن أخى من ودنى فى المغــايب

(انظر الكشاف) (١/ ٤٢٢) و (٤ / ٣٢٩) وقد أورد القاضى البيضاوى البيت الأول فى تفسيره للآية وذكر الشهاب الخفاجى البيت الثانى فى الحاشية من غير عزو (٣ / ١٦) و « النوك » بالضم والفتح « الحمق » كما فى سائر المظان اللغوية .

(٤) يريد بالقاضى : ناصر الدين عبد الله بن عمر بن محمد بن على ، ولى قضاء القضاه بشيراز فاشتهر بلقب « قاضى القضاه » له مصنفات كثيرة فى الفقه والأصول والمنطق والتاريخ وغيرها ، وله التفسير المشهور بـ « تفسير البيضاوى » والذى سماه « أنوار التنزيل وأسرار التأويل » وقد صحح الشهابى الخفاجى صاحب الحاشية على التفسير : أن القاضى قد توفى سنة (٧١٩) خلافا لما ذهب إليه بعض مترجميه . وللقاضى البيضاوى ترجمة فى طبقات ابن السبكى (٨ / ١٥٧) وطبقات المفسرين للداودى (١ / ٢٤٢) . والبداية : (٣ / ٣٠٩) ، المرآة (٤ / ٢٢٠)

لا يكون حبهم وبغضهم إلا فى الله ، أو عن الاستعانة بهم فى الغزو وسائر الأمور الدينية (١) .

النهى عن الثقة فى أهل الكتاب وائتمانهم :

وفى القرطبى (٢) : نهى الله المؤمنين أن يلاطفوا الكفار فيتخذوهم أولياء قال الله ــ عز وعلا ــ فى تلك السورة ﴿ **ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك إلا ما دمت عليه قائما ذلك بأنهم قالوا ليس علينا فى الأميين سبيل** ﴾ (٣) .

قال الإمام القرطبى فى تفسيره : أخبر الله تعالى أن فى أهل الكتاب الأمين والخائن ، والمؤمنون لا يميزون ذلك : فينبغى اجتناب جميعهم .

وفى الكشاف : تركهم أداء الحقوق بسبب قولهم ليس علينا فى الأميين سبيل أى : لا يتطرق علينا عتاب ، وذم فى شأن الأميين ، يعنون : الذين ليسوا من أهل الكتاب ، وما فعلنا لهم : من حبس أموالهم ، والإضرار بهم لأنهم ليسوا على ديننا وكانوا يستحلون ظلم من خالفهم ويقولون : « لم يجعل لهم فى كتابنا حرمة » (٤) . وقال القاضى : إنهم استحلوا ظلم من خالفهم وقالوا لم تجعل لهم فى التوراة حرمة (٥)

وقال القاشانى (٦) : كانوا يستحلون أموال المسلمين .

---

(١) انظر قول القاضى هذا فى تفسيره بهامش حاشية الخفاجى (٣ / ١٦) وتحريم الاستعانة بغير المسلمين فى حروب المسلمين ــ هو مذهب كثير من العلماء ، وسيأتى مزيد بيان وإيضاح لمذاهب العلماء فى ذلك .

(٢) القرطبى : هو أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبى بكر بن فرح الأنصارى الخزرجى الأندلسى ، ثم القرطبى ، توفى سنة (٦٧١) هـ فى صعيد مصر الأدنى له ترجمة فى الديباج (٣١٧) وطبقات المفسرين للسيوطى (٢٨) ، وطبقات الداودى (٢ / ٦٥) ، والشذرات (٥ / ٥٣٥) .

وقوله ــ المشار إليه ــ راجعه فى تفسيره : (٤ / ١١٦) وراجع أيضا : (٤ / ٥٧) .

(٣)سورة آل عمران (٧٥)

(٤) تفسير الآية (٧٥) من سورة آل عمران . وانظر الكشاف . وراجع (٤٢٢) منه .

(٥) راجع تفسير القاضى البيضاوى بهامش حاشية الشباب (٣ / ٣٨ ، وقبلها صـ ١٦) .

(٦) لم أتبين المراد به ولم أهتد لقوله هذا فلعل المصنف نقله من تفسير آخر .

وقال الإمام الرازى فى تفسيره : مذهب اليهود أنه يحل قتل المخالف ويحل أخذ ماله بأى طريق كان (١) .

قال الله تعالى فى سورة « آل عمران » : ﴿ **يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا ودوا ما عنتم** ... ﴾ (٢) الآية ، بطانة الرجل : وليجته وصفيه ، وخاصته الذين يستبطنون سره ، ويعرفهم أموره : ثقة بهم ، وركونا إلى مودتهم .

وفى الكشاف ﴿ **ودوا ما عنتم** ﴾ أى تمنوا أن يضروكم فى دينكم ودنياكم أشد الضرر وأبلغه (٣) وفى « التفسير الكبير » لا يقصرون فى إفساد دينكم فإن عجزوا عنه ودوا لقاءكم فى أشد أنواع الضرر (٤) .

قال أبو بكر الرازى الجصاص : نهى الله المؤمنين أن يتخذوا أهل الكفر بطانة من دون المؤمنين ، وأن يستعينوا بهم فى خواص أمورهم وأخبر عن ضمائر هؤلاء الكفار للمؤمنين فقال : ﴿ **لا يألونكم خبالا** ﴾ يعنى لا يقصرون فيما يجدون السبيل إليه : من إفساد أموركم ، لأن الخبال هو الفساد . ثم قال ﴿ **ودوا ما عنتم** ﴾ قال السدى ودوا ضلالكم عن دينكم .

---

(١) الإمام الرازى ــ هو : فخر الدين محمد بن عمر بن الحسين ، المتوفى سنة (٦٠٦) هـ . له التصانيف الكثيرة فى مختلف العلوم والفنون راجع لمعرفة مصادر ترجمته الكثيرة « المحصول فى علم أصول الفقه » (٢ / ق ٣ / ٢٦١ ــ ٢٦٣) أما تفسيره فهو تفسير موسوعى جامع يسمى « بالتفسير الكبير ، أو مفاتيح الغيب » طبع عدة طبعات ، آخرها طبعة مصطفى محمد بمصر (٣٢) مجلدا ، وقد صورت هذه الطبعة فى بيروت .

وأما مانقله عنه فانظره فى (٨ / ١٠٨) من هذه الطبعة من تفسيره .

(٢) آل عمران (١١٨) وراجع تفسير البيضاوى (٣/ ٥٨) والقرطبى : (٤ / ١٧٨) والرازى (٨ / ٢١٠) والكشاف : (١ / ٤٥٨) وابن كثير (١ / ٣٩٨) .

(٣) انظر الكشاف : (١./ ٤٥٨)

(٤) انظر (٨ / ٢١٢)

وقال ابن جريج (١) ودوا أن تعنتوا فى دينكم فتحملوا على المشقة فيه ، لأن أصل العنت المشقة فكأنه أخبر عن محبتهم لما يشق عليكم .... ا هـ

المنع من الاستعانة بغير المسلمين :

ففى هذه الآية دلالة على أنه لا يجوز الاستعانة بأهل الذمة فى أمور المسلمين من العمالات والكتبة .

وقد روى عن عمر — رضى الله تعالى عنه — أن أبا موسى الأشعرى استكتب رجلا من أهل الذمة فكتب يعنفه وتلا ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم** ﴾ لا تردوهم إلى العز بعد أن أذلهم الله تعالى .

وروى فرقد بن صالح عن أبى (قال قلت لعمر رضى الله عنه : إن ههنا رجلا من أهل الحيرة لم نر رجلا أحفظ منه ولا أخط منه بقلم فإن رأيت أن نتخذه كاتبا ؟ .

قال : إذن قد اتخذت بطانة من دون المؤمنين . وروى هلال الطائى عن

---

(١) هذا النص — كله — ورد فى أحكام القرآن (٢ / ٤٣ — ٤٤) وأما السدى — فهو : إسماعيل ابن عبد الرحمن بن أبى كريمة الهاشمى السُدّى — بضم السين وتشديد الدال ، تابعى مفسر ، روى عن ابن عباس وأنس وغيرهم رضى الله عنهم ، ورمى بالتشيع — توفى سنة (١٢٧) هـ . له ترجمة فى الخلاصة (٣٠) والميزان (١ / ٢٣٦) ، والنجوم (١ / ٣٠٤) وطبقات الداودى (١ / ١٠٩) .

وأما ابن جريج — فهو الإمام المكى التابعى عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج الرومى الأموى توفى سنة (١٥٠) هـ أدرك صغار الصحابة . أملى تفسيره إملاء على حجاج بن محمد المصيصى الحافظ وله أيضا كتاب السنن — له ترجمة فى التذكرة (١ / ١٦٩) ، والتهذيب (٦ / ٤٠٢) وتاريخ بغداد (١٠ / ٤٠٠) والعبر (١ / ٢١٣) والميزان (٢ / ٦٥٩) وطبقات الداودى : (١ / ٣٥٢) ، وأما عمر — رضى الله عنه — فهو إمام الأمة الشهيد أبو أم المؤمنين حفصة . به يعرف التعريف ، حوت الصدور من حبه ومناقبه وهيبته مالم تستطع سطور كتب مناقبه على كثرتها احتواءه واستيفاءه ، زاده الله تعالى كرامة بالشهادة بيد « أبى لؤلؤة المجوسى » سنة ٢٣ هـ ، ترجمت له معظم المظان ، منها طبقات ابن سعد (٢ / ٣٣٤ — ٣٣٦) والاستيعاب والإصابة (٢ / ٤٥٠ — ٥١١) والحلية (١ / ٣٨) كما أفردت مناقبه وترجمته بمؤلفات كثيرة قديمة وحديثة ، منها « تاريخ عمر » لابن الجوزى وغيره . وأما أبو موسى الأشعرى — فهو الصحابى الجليل عبد الله بن قيس الكوفى توفى سنة (٤٤) هـ على الصحيح له ترجمة فى الإصابة (٢ / ٣٥١) .

وسق الرومى ، قال : كنت مملوكا لعمر ــ رضى الله عنه ــ وكان يقول لى أسلم فإنك إن أسلمت استعنت بك على أمانة المسلمين ، فإنه لا ينبغى أن أستعين على أمانتهم بمن ليس منهم فأبيت ، فقال : لا إكراه فى الدين ، فلما حضرته الوفاة أعتقنى وقال اذهب حيث شئت (١) .

وفى « مبسوط السرخسى » (٢) عن عمر ــ رضى الله تعالى عنه ــ أنه أعتق عبدا له نصرانيا ، وقال : لو كنت على ديننا لاستعنا بك على بعض أعمالنا ، وفيه دليل على أن إعتاق النصرانى قربة ، وأنهم لايؤتمنون على شىء من أمور المسلمين فإنهم لا يؤدون الأمانة فى ذلك .

وقد أنكر عمر ــ رضى الله تعالى عنه ــ ذلك على أبى موسى الأشعرى ، فإنه قال : كاتبى لا يدخل المسجد ، قال : أجنب هو ؟ قال : لا ، ولكنه نصرانى ، فقال : سبحان الله أما سمعت الله يقول : ﴿ **لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا** ﴾ (٣) .

وقال الإمام القرطبى فى تفسيره : نهى الله سبحانه المؤمنين بهذه الآية أن يتخذوا من الكفار ، واليهود وأهل الذمة ولجاء، جمع وليجة يفاوضونهم فى الآراء ، ويسندون إليهم أمورهم . وروى أن أبا موسى الأشعرى ــ رضى الله تعالى عنه ــ

---

(١) انظر هذا كله فى أحكام القرآن (٢ / ٤٣ ــ ٤٤) وراجع نحو هذه الآثار فى تفسير ابن كثير (١ / ٣٩٨ ــ ٣٩٩) ط دار الفكر ، والقرطبى (٤ / ١٧٩) وتفسير الرازى (٨ / ٢١٠) وتفسير الطبرى (٤ / ٤٠ ــ ٤١) وبهامشه النيسابورى (٥٢ ــ ٥٣) وأحكام القرآن للكيا هراس ، (٢ / ١٦ــ ١٨ ، و ٦٨ ــ ٦٩) ولابن العربى (١ / ٢٦٧ ــ ٢٦٨ و ٢٦٩) .

(٢) المبسوط : كتاب من أهم كتب ظاهر الرواية ــ عند الحنفية ــ إن لم يكن أهمها على الإطلاق ، يقع فى ثلاثين جزءا طبع عدة مرات ، اخرها الطبعة المصورة التى قامت بها دار المعرفة فى بيروت . وأما السرخسى ــ فهو : الإمام محمد بن أحمد بن أبى سهل المتوفى سنة (٤٩٠) هـ له الاصول المشهور وغيره ، كان ــ رحمه الله شديد التمسك بمذهب أبى حنيفة ــ رضى الله عنه ــ شديدا على مخالفيه . له ترجمة فى الفوائد البهية (١٥٨ ــ ١٥٩) وأما أثر سيدنا عمر ــ رضى الله عنه ــ فانظره فى المبسوط (٧ ــ ٧٧) .

(٣) انظر المبسوط : (٧ ــ ٧٧) .

استكتب ذميا ، فكتب إليه عمر — رضى الله عنه — يعنفه ، وتلا عليه هذه الآية ..

وعن عمر — رضى الله عنه — قال : لا تستعملوا أهل الكتاب فإنهم يستحلون الرشا ، واستعينوا على أموركم وعلى رعيتكم بالذين يخشون الله تعالى .

وقيل لعمر — رضى الله عنه — إن ههنا رجلا من نصارى الحيرة لا أحد أكتب منه ، ولا أخط بقلم ، أفلا يكتب عنك ؟ فقال : إذن أتخذ بطانة من دون المؤمنين . فلا يجوز استكتاب أهل الذمة ولا غير ذلك من تصرفاتهم فى البيع والشراء والاستنابة (١) إليهم .

قال القرطبى : وقد انقلبت الأحوال فى هذه الأزمان باتخاذ أهل الكتاب كتبة وأمناء وتسودوا (٢) بذلك عند الأغنياء من الولاة والأمراء .

وقوله : ﴿ **لايألونكم** ﴾ يعنى : لا يتركون الجهد فى إفسادكم ، يعنى أنهم وإن لم يقاتلوكم فى الظاهر فإنهم لايتركون الجهد فى المكر والخديعة . (٣) .

قال الله — عز من قائل — فى سورة النساء ﴿ **ياأيها الذين آمنوا لا تتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطانا مبينا** ﴾ (٤) أى : حجة بينة يعنى أن موالاة الكافر بينة على النفاق (٥)

وقال القاضى البيضاوى : فإنه صنيع المنافقين وديدنهم ، فلا تتشبهوا بهم ﴿ **سلطانا** ﴾ حجة بينة ، فإن موالاتهم دليل على النفاق ، أو سلطان يسلط عليكم عقابه .

---

(١) من التوبة بمعنى الرجوع

(٢) التسود من السيادة .

(٣) انظر تفسير القرطبى : (٤ / ١٧٨ — ١٨٠) وراجع (٦ / ٢١٦ — ٢١٧) منه .

(٤) سورة النساء (١٤٤)

(٥) كما فى تفسير القاضى البيضاوى : (٣ / ١٩٢) والذى فى تفسير القرطبى « سلطانا مبينا » أى : فى تعذيبه إياكم بإقامته حجة عليكم إذ قد نهاكم ، فانظر (٥ / ٤٢٥) وراجع تفسيره لقوله تعالى : « بشر المنافقين بأن لهم عذابا أليما (١٣٨) الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيبتغون عندهم العزة فإن العزة لله جميعا » (١٣٩) ، وذلك فى ص (٤١٦) .

قال أبو بكر الرازى الولى هو الذى يتولى صاحبه بما يجعل له من النصرة والمعونة على أمره ، والمؤمن ولى الله لما يتولى من إخلاص طاعته ، والله ولى المؤمنين بما يتولى من جزائهم على طاعته ، واقتضت الآية النهى عن الاستنصار بالكفار والاستعانة بهم وبأهل الذمة فى الأمور التى يتعلق بها التصرف والولاية . وهذا نظير قوله تعالى : ﴿ **لاتتخذوا بطانة من دونكم** ﴾ (١) .

حكم توكيل غير المسلم عنه :

وقد كره أصحابنا توكيل الذمى فى البيع والشراء (٢) ..

قال الله — جل وعلا — فى سورة المائدة ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم** ﴾ (٣) الآية .

قال صاحب الكشاف فى تفسيره : ومن يتولهم منكم فإنه منهم : من جملتهم ، وحكمه حكمهم . ثم قال : وهذا تغليظ من الله وتشديد فى وجوب مجانبة المخالف فى الدين ، واعتزاله ، كما قال رسول الله ﷺ : « لاترائى ناراهما » ، ومنه قول عمر — رضى الله عنه — لأبى موسى الأشعرى فى كاتبه النصرانى : لا تكرموهم إذ أهانهم الله ، ولا تأمنوهم إذ خونهم الله ، ولا تدنوهم إذ أقصاهم الله .

وروى أن أبا موسى قال : لا قوام للبصرة إلا به فقال له عمر رضى الله عنه — مات النصرانى والسلام . يعنى : هب أنه مات فما كنت — حينئذ —

---

(١) راجع أحكام القرآن للجصاص : (٢ / ٩ — ١٠) ، (٥٤٤ — ٥٤٦) .

(٢) قال الإمام السرخسى : ويكره للمسلم أن يدفع إلى النصرانى مالا مضاربة ، وهو جائز فى القضاء . كما يكره أن يوكل النصرانى بالتصرف فى ماله . وعلل ذلك بأنه (أى النصرانى) لا يتحرز عن الزيادة ، ولا يهتدى إلى الأسباب المفسدة للعقد ولا يتحرز عنها اعتقادا .

فانظر المبسوط (٢٢ / ١٢٥) وراجع المغنى (٥ / ٢٤٥) وبداية المجتهد : (٢ / ٣٢٨) والإفصاح (٢ / ١١) .

(٣) المائدة (٥١) .

صانعه — فاصنعه الساعة ، واستغن عنه بغيره (١) ؛

وقال الإمام (٢) : معنى ﴿ **لاتتخذوهم أولياء** ﴾ لا تعتمدوا على الاستنصار بهم ، ولا تتوددوا إليهم ثم قال : وهذا تغليظ من الله وتشديد فى وجوب مجانبة المخالف فى الدين .

روى عن أبى موسى الأشعرى — رضى الله عنه — قال : قلت لعمر رضى الله عنه : إن لى كاتبا نصرانيا ، فقال : مالك قاتلك الله ؟ ألا اتخذت حنيفا أما سمعت قول الله — تعالى —: ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء** ﴾ (٣) قلت : له دينه ولى كتابته فقال : لا أكرمهم إذ أهانهم الله ، ولا أعزهم إذ أذلهم الله ولا أدنيهم إذ أبعدهم الله .. قلت لا يتم أمر البصرة إلا به ، فقال مات النصرانى . يعنى هب أنه قد مات فما تصنع بعده ؟ فما تعمله بعد موته فاعمله الآن واستغن عنه بغيره .

وأكثر المفسرين : على أنه تشديد وتغليظ فى وجوب مجانبتهم فقال أبو بكر الرازى : الولى هو الناصر ، لأنه يلى صاحبه بالنصرة ، وولى الصغير ، لأنه يتولى التصرف عليه بالحياطة ، وولى المرأة : عصبتها ، لأنهم يتولون عليها عقد النكاح .

وفى هذه الآية دلالة : على أن الكافر لا يكون وليا للمسلم فى التصرف ، ولا فى النصرة .

وتدل على وجوب البراءة من الكفار والعداوة لهم ، لأن الولاية ضد العداوة ، فإذا أمرنا بمعاداة اليهود والنصارى لكفرهم : فغيرهم — من الكفار — بمنزلتهم .
ويدل على أن الكفر — كله — ملة واحدة قوله تعالى : ﴿ **بعضهم أولياء**

---

(١) انظر الكشاف (١ / ٦١٩) وتفسير الإمام الرازى (١٢ / ١٦) .
(٢) يريد به الإمام فخر الدين الرازى .
(٣) المائدة (٥١) وانظر التفسير الكبير للإمام الرازى (١٢ / ١٥ — ١٦)

بعض ﴾ (١) وقال الشيخ أبو منصور (٢) — فى تأويلاته — وقوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء ...** ﴾

يحتمل وجوها : يحتمل الولاية فى الدين — أى لا تدينوا بدينهم فتصيروا أولياء لهم ، لأن حقيقة الموالاة عند اتحاد الدين ، ولهذا قال : ﴿ **بعضهم أولياء بعض** ﴾ ، فيكون هذا نهيا عن ارتكاب الكفر بسبب اتخاذ الولاية معهم .

ويحتمل الولاية فى النصر والمعونة ، لأنهم إذا اتخذوهم أولياء فى النصرة والمعونة صاروا أمثالهم ، لأنهم إذا نصروا الكفار على المسلمين وأعانوهم فقد كفروا .

ويحتمل أن يتخذوهم أولياء فى الكسب ، وفى أمور الدنيا ، فإنهم إذا فعلوا ذلك لا بد أن يميلوا إليهم ويصدروا عن آرائهم فى شىء وذلك مما يفسقهم ويجرح شهادتهم وذلك فى الشركة والمضاربة معهم ونحو ذلك مما فيه مخالطة فى الأموال فيكون النهى عن الموالاة معهم نهيا عن ذلك كله (٣) .

قال الله — علت كلمته — فى سورة المائدة ﴿ **لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا** ﴾ (٤) قال صاحب الكشاف : وصف الله — تعالى — شدة شكيمة اليهود ، وصعوبة إجابتهم إلى الحق .. وجعل اليهود قرناء للمشركين فى شدة العداوة للمؤمنين بل نبه على تقدم قدمهم فيها بتقديمهم على الذين أشركوا ، ولعمرى إنهم لكذلك وأشد . عن النبى ﷺ « ما خلا

---

(١) انظر أحكام القرآن للجصاص (٢ / ٥٤٠) .

(٢) هو الإمام محمد بن محمد بن محمود ، أبو منصور الماتريدى نسبة إلى « ماتريد » أو « ماتريت » محلة فى « سمر قند » وهو من كبار أئمة المتكلمين ، وإليه تنسب الماتريدية ، توفى سنة (٣٣٣) هـ انظر ترجمته فى الفوائد البهية (١٩٥) .
وأما التأويلات فهو تفسير القرآن العظيم طبع منه المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بمصر مجلداً ولا يزال باقيه مخطوطا ، والنص الذى ذكره المصنف فيما لم يطبع بعد .

(٣) أ هـ ما نقله عن تأويلات الشيخ الماتريدى .

(٤) المائدة (٨٢)

يهوديان بمسلم إلا هما بقتله » (١) .

قال الإمام : واعلم أنه تعالى ذكر فى هذه الآية : أن اليهود فى غاية العداوة مع المسلمين ولذلك جعلهم قرناء للمشركين فى شدة العداوة .

بل نبه على أنهم أشد فى العداوة من المشركين ، من جهة أنه تعالى قدم ذكرهم على ذكر المشركين ولعمرى إنهم لكذلك . عن النبى ﷺ ما خلا يهوديان بمسلم إلا هما بقتله . ثم قال : وقال آخرون : مذهب اليهود أنه يجب عليهم إيصال الشر إلى من يخالفهم فى الدين بأى طريق كان ، فإن قدروا على القتل فذلك وإلا فبغصب المال أو بالسرقة أو بنوع من المكر والكيد والحيلة (٢)

النهى عن الاستعانة بالكفار :

قال الله جلت قدرته فى سورة المائدة : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزوا ولعبا من الذين أوتو الكتاب من قبلكم والكفار أولياء واتقوا الله إن كنتم مؤمنين** ﴾ (٣) .

قال أبو بكر الرازى (٤) : فيه نهى عن الاستنصار بالمشركين لأن الأولياء هم الأنصار .

وقد روى عن النبى ﷺ أنه حين أراد الخروج إلى أُحُد جاءه قوم من اليهود

---

(١) انظر الكشاف (١ / ٦٣٧) وأما الحديث فقد أخرجه الخطيب فى التاريخ عن أبى هريرة بلفظ : « ما خلا يهودى قط بمسلم إلا حدث نفسه بقتله » فانظره فى (٨ / ٣١٦) منه ، وانظر الفتح الكبير (٣ / ٩٢) . والمقاصد الحسنة (٣٦٧ والتمييز (١٤٢) ، والكشف (٢ / ١٨٧) ومختصر المقاصد (١٧٦) .

(٢) أنظر التفسير الكبير (٢٢ / ٦٦) .

(٣) المائدة : (٥٧) .

(٤) أى : الجصاص .

وقالوا : نحن نخرج معك . فقال : إنا لا نستعين بمشرك . (١) .

وقد روى النبى أيضا : « أن رجلا من المشركين لحق النبى ﷺ ليقاتل معه ، فقال : أرجع أنا لا نستعين بمشرك » .

وقال أصحابنا لا بأس بالاستعانة بالمشركين على قتال غيرهم من المشركين إذا كانوا متى ظهروا كان حكم الإسلام ــ هو الظاهر ــ فأما إذا كانوا لو ظهروا كان حكم الشرك هو الغالب فلا ينبغى للمسلمين أن يقاتلوا معهم ا هـ .

فالحاصل أنه قد ظهر مما سبق عدة أمور : منها : أن ما يفعله اليهود فى شأن المسلمين من القتل والظلم والإفساد والإضرار بهم ، وأخذ أموالهم بأى طريق كان والمكر والحيلة والخديعة حلال ــ فى زعمهم ــ يقولون : إنه فى التوراة كذلك ويفترون على الله الكذب بادعاء ذلك ــ كما صرح به الإمام وغيره من أفاضل المفسرين ــ فيما تقدم . ومنها أنه ــ على ما نقله الإمام عن الآخرين يجب عليهم إيصال الشر إلى من يخالفهم فى الدين بأى طريق كان ، فإن قدروا على القتل فذاك ، وإلا فبنهب المال والسرقة أو بنوع من المكر والكيد والحيلة . ومنها : أنه يجب الاجتناب عن الكفار والبراءة منهم وأن يعاملوا بالغلظة والجفوة والمعاداة، دون

---

(١) أحاديث عدم الاستعانة بالمشركين على قتال المشركين أخرج بعضها الجماعة إلا البخارى من طريق عائشة ــ رضى الله عنها ــ وأخرج بعضها الحاكم بسند صحيح وكذلك أحمد وابن أبى شيبة وإسحاق بن راهويه فى مسانيدهم والطبرانى فى معجمه من رواية خبيب بن عبد الرحمن ، وأخرج بعضها إسحاق بن راهويه من طريق أبى حميد الساعدى .

فانظر نصب الراية (٤ / ٤٢٣ ــ ٤٢٤) وقد : وردت أحاديث أخرى تدل على جواز الاستعانة بهم ولكن فى كل منها مقالا ينزل به عن درجة معارضة أحاديث النهى عن الاستعانة بهم ، ولقد اختلف الفقهاء فى هذ المسألة فذهب بعضهم إلى منع الاستعانة بالمشركين مطلقا . ومن هؤلاء الإمام أحمد ، وتمسكوا بأحاديث الباب الصحيحة ، وقالوا : « إن ما يعارضه لا يوازيه بالصحة : فيتعذر ادعاء النسخ الذى قال به بعض الشافعية وذهبت طائفة إلى أن ذلك للإمام بشرطين أحدهما أن يكون فى المسلمين قلة بحيث تدعو الحاجة إلى ذلك . والثانى : أن يكونوا ممن يوثق بهم فى أمر المسلمين . وذهب بعضهم إلى أن ذلك متروك لتقدير الإمام واختياره : فله أن يرد المشرك ، وله أن يأذن له .

وانظر تفاصيل أقوالهم واستدلالاتهم فى هذه المسألة فى المغنى لابن قدامة والمحلى : (٧ / ٣٣٤) ونصب الراية (٤ / ٤٢٢–٤٢٦) . (١٠ / ٤٥٥ ــ ٤٥٦) ومختصر المزنى المطبوع مع الأم (٨ / ٢٧٠) .

الملاطفة والملاينة والموالاة كما ذكره أوائل أئمة المفسرين فيما سلف وعلى هذا نص الفقهاء أيضا (١) .

ومنها أن أبا بكر الرازى قال : (٢)فى قوله تعالى ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا** ﴾ الآية : نهى الله المؤمنين أن يستعينوا بأهل الكفر فى خواص أمورهم ثم قال وفى هذه الآية دلالة على أنه لا تجوز الاستعانة بأهل الذمة فى أمور المسلمين من المعاملات والكتبة . وقال فى قوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الكافرين أولياء** ﴾ (٣) . اقتضت النهى عن الاستنصار بالكفار . والاستعانة بهم ، والركون إليهم ، والثقة بهم ، ثم قال : وتدل على أنه لا يجوز الاستعانة بأهل الذمة فى الأمور التى يتعلق بها التصرف والولاية .

وقد كره أصحابنا توكيل الذمى فى البيع والشرى (٤) . وقال فى قوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء** ﴾ (٥) الآية ، دلالة على أن الكافر لا يكون وليا للمسلم فى التصرف ولا فى النصرة وتدل على وجوب البراءة من الكفار والعداوة لهم ، لأن الولاية ضد العداوة وقال فى قوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزوا ولعبا** ﴾ (٦) . الآية . فيه نهى عن الاستنصار بالمشركين ، لأن الأولياء هم الأنصار .

---

(١) لا يخفى أن هذا النوع من المعاملة إنما يكون ضد الحربى . أما الذمى والمستأمن والمعاهد فلهم طرائق أخرى . المعاملة الطيبة ، لكن ليس من بينها اتخاذهم قادة وأئمة وموجهين .

(٢) قال ذلك فى كتابه « أحكام القرآن » (٢ / ٤٣ — ٤٤) .

(٣) النساء: (١٤٤) وانظر أحكام القرآن للجصاص (٢ / ٣٥٥ — ٣٥٦) .

(٤) راجع المبسوط : (١٢٢ — ١٢٥) .

(٥) المائدة : (٥١) وانظر أحكام القرآن للجصاص (٢/ ٥٤٠ — ٥٤١) .

(٦) المائدة : (٥٧) وانظر أحكام القرآن للجصاص (٢ / ٥٤٤ — ٥٤٦) .

ومنها الآثار المنقولة عن الإمام الفاروق — رضى الله عنه — فى النهى عن الاستنصار بأهل الذمة — كما أسلفنا — والاستعانة بهم ، تلك الآثار التى لو تدبرتها — ظهر لك عدم جواز الاستعانة بأهل الذمة ، والنهى عنها ، وعن الركون إليهم ، والوثوق بهم فى أمور المسلمين من الكتابة والأمانة ونحوهما .

ومن جملتها بل من أهمها معالجات مرضانا على أيدى أطبائهم،فعدم جوازها أولى وأجلى من غيرها كيف وأنه قد تحقق أمر البارى لنا باجتنابهم ، والبراءة منهم لاسيما اليهود فإنهم كما عرفت أشدهم عداوة للذين آمنوا ، يستحلون دماءهم ، ويتربصون بهم ، بل يجب عليهم إيصال الشر إليهم بأى طريق يمكن فكيف يمكن الوثوق بهم والركون إليهم فى معالجات مرضى المسلمين أو التعاون مع جيوشهم أو تصنيع السلاح لهم ، إن فى ذلك كشفا لعورات المسلمين ، المؤمنين لهم ، وتسليطهم عليهم ولا خفاء أن اتخاذهم أطباء وأمناء ونحو ذلك يتضمن اكرامهم والركون اليهم واتخاذهم أولياء .
لقد تقدم أن الإمام الفاروق — رضى الله عنه — عنف أبا موسى الاشعرى — رضى الله عنه — لاستكتابه ذميا ، فكيف بأولئك الذين يتخذونهم مستشارين ، وأطباء ويجعلونهم أمناء على أموالهم وأسرارهم ، وسائر عوراتهم ، ويوكلون إليهم تدريب جيوشهم وتصنيع سلاحهم ، وسن قوانينهم وتربية أجيالهم ، وكتابة تاريخهم وإدارة بيوتهم وتنشئة أبنائهم ، والاطلاع على الصغير والكبير من شئونهم ؟ .. أيبتغون عندهم العزة فإن العزة لله جميعا .
أبعد هذا يرجو عاقل أن تقوم للمسلمين قائمة ، أو يعود لهم غابر مجد ؟ .. لا . لا حتى يغيروا ما بأنفسهم .

إن دام هذا ولم يحدث له غير
لم يبك ميت ولم يفرح بمولود .

* * *

فهرس الكتاب

الموضوع	رقم الصفحة
كلمة المحقق	٣
مقدمة التحقيق	٥
١ ــ ضرورة وجود حاجز نفسى بين الأمة وأعدائها	٥
٢ ــ ولاية المؤمنين للمؤمنين	١١
٣ ــ التسامح والتهاون	١٢
٤ ــ الحاجز النفسى ودولة آل عثمان	١٣
٥ ــ مواقف بعض سلاطين آل عثمان	١٤
٦ ــ المعاهدة كما نقلها محمد فريد	١٦
٧ ــ الامتياز الأكبر	٢٠
٨ ــ تجديد الامتيازات	٢١
٩ ــ الغزو الفكرى	٢١
١٠ ــ توصية الدول النصرانية	٢٢
١١ ــ الفكر الاتحادى ومصادره	٢٣
١٢ ــ تفشى الأمية الدينية	٢٥
١٣ ــ إلغاء الامتيازات وثمنه الباهظ	٢٦
١٤ ــ مجلة الأحكام العدلية	٢٧
١٥ ــ رد فعل الدول النصرانية	٢٨
١٦ ــ الديانة القومية العربية	٢٨
١٧ ــ القومية العربية	٢٨

الموضوع	رقم الصفحة
١٨ ـــ اتخاذ التعليم ستارا	٣٠
١٩ ـــ إنشاء الجمعيات والأحزاب المتصلة بالأجنبى	٣٢
٢٠ ـــ التسلسل التاريخى لظهور تلك الجمعيات	٣٣
٢١ ـــ الضربة القاضية	٣٤
٢٢ ـــ ثورة ٩ شعبان	٣٦
٢٣ ـــ وماذا بعد ؟	٣٨
٢٤ ـــ تحذير وتنبيه	٤٠
٢٥ ـــ سبيل الخلاص	٤١
النهى عن تولى الكافرين	٤٤
النهى عن الثقة فى أهل الكتاب وائتمانهم	٥٠
المنع من الاستعانة بغير المسلمين	٥٢
النهى عن الاستعانة بالكفار	٥٨

